داود سلمان الشويلي

طريق الشمس

داود سلمان الشويلي

طريق الشمس

رواية

الطبعة الأولى ـ بغداد ـ ٢٠٠١ م

خلف العليقة
انتظار وبكاء

انخرط في بكاء طويل .. كانت عيناه ، قبل أن يلتمع فيهما ذلك السائل الزلالي ، قد مدتا ببصرهما الى أمام ، حيث كان وجهه الكالح ، بلحيته الكثة السوداء ، وقد اعتلاها التراب ، قد وجهه الى الناحية التي جاء منها .. ثم ودون أن يتفوه بأية كلمة ، سحب نظارته الطبية ذات الاطار البيضوي المصنوع من معدن بلون الفضة ، بأطراف أصابع يده اليمنى الى خارج المنطقة المحيطة بوجهه الطفولي ..

وبكى ..

كنت قد شعرت حينها برجفة قد سرت في جسدي ، خضة امتدت من بين أصابع قدميّ المحفوظة بالجوارب الصوفية المحيط بهما ((البسطال)) العسكري الأسود .. الى الاعلى حتى أحسست أن شعيرات رأسي المحمية بالخوذة المعدنية قد انتصبت واقفة .

كان يبكي ..

وكان والدي ينهرني عندما كنت ابكي ، وأنا ما زلت صغيرا .. عيب يا ولد .. عيب ، يجب أن تكون رجلا .

اختلط دمع عينيه بتراب لحيته . كان صوت نشيجه يتعالى .. وكنت واقفا أمامه .. ممسكا ببندقيتي (الكلاشنكوف) ، وقد وجهت فوهتها الى الأرض .. تركته يبكي ، فهذا حق لم أشأ أن انتزعه منه .. قلت مع نفسي : أن للبكاء أسبابا كثيرة .. ربما هو تعبير عن انهزاميته ، اوجبنه .. أو هو تنفيس عما يجيش في نفسه من أحاسيس ولدتها حالة

الأسر عنده .. أو أنها حالة مرضية تلازمه دائماً .. أن البكاء حالة تعبيرية . ومثل هذا الشاب الايراني الذي يقف أمامي الآن ، له من الأسباب ما يدعوه الى أن يبكي ..

فكرت أن ازجره . عيب يا ولد .. عيب .. البكاء للـ .. لكنني عدلت عن هذه الفكرة .. وتركت دموعه تنهمر ـ كما يرغب هو ـ وبصوت خافت ، كان نشيجه يلاعب طبلة اذنيّ .

كانت المسافة التي تفصلني عنه لم تزد عن ثلاثة أمتار .. أنها قطعة من هذه الأرض الممتدة على مد البصر ، والتي تحيط بنا من كل الجهات .. رمال وحفر .. تلال صغيرة متناثرة هنا وهناك على هذه الأرض الرملية الناعمة .

نظرت حولي ، كنت وإياه نقف داخل حفرة كبيرة ، وقد راحت أمامنا من جهة الشرق بعض الأعشاب الصحراوية .. وهي عبارة عن ((عليقات)) كما يصطلح عليها عسكريا .. ومن بعيد ، الى جهة اليسار ، لاحت لناظريّ من خلل العتمة ، أشباح هياكل غير محددة المعالم .. لم أكن قد انتبهت إليها عند وصولي الى هذه المنطقة قبل ساعات .. أما من جهة اليمين ، فلم أرَ سوى الفراغ الذي ينوء تحت لون الغبش الرمادي ، ومجموعة من العليقات تلوح من بعيد وهي منتشرة على مسافات متباعدة .

تساءلت مع نفسي ، كيف حدث هذا ؟ مصادفة ، أم تخطيط مسبق ؟ لم أصل الى إجابة محددة وقتها ، ثم ارتسم في خاطري سؤال آخر : كيف وصلنا الى هنا ، وفي هذه الحفرة بالذات ؟

كل الذي أعرفه أنني استطعت أن أأسر هذا الجندي الايراني .. لقد شاهدته من خلل الظلام متوجها بكل حذر نحو هذه العليقة التي كنت اختبىء خلفها ، أحاول تركيز كل فكري في حاستي النظر والسمع ، مراقبا أية حركة ، أو اتسمع لأي صوت أو نأمة تأتي من الجهة المقابلة .. كان عبارة عن شبح يسير على اربع .. كتلة سوداء تتحرك .. وقتها قلت لنفسي أنه كاظم .. لقد عاد .. ولكن ، تساءلت باستغراب ، كيف يعود كاظم من هذا الاتجاه ؟.. كان المفروض وبحسب الخطة المرسومة والمتفق عليها ، أن يكون الآن مع العريف محمود في الجهة اليسرى يراقبان تحركات العدو ، كما أفعل أنا الآن .. عندها اقتربت كثيراً من العليقة ، جعلتها سداً كي لا يراني أحد .. ربما كان كاظم ، أو غيره ، المهم أن أكون ـ هذه اللحظة ـ أكثر احتراسا ..

كان الشبح يقترب مني أكثر فأكثر .. وكنت أحس في حركته خوفا وارتباكا .. تركت له حرية التنقل .. لملمت نفسي ، كورت جسمي خلف العليقة الصغيرة محتمياً بها ، جاعلاً منها ساترا يخفيني عن الآتي .

هيأت بندقيتي كي تكون سريعة الإطلاق باتجاه الشبح الآتي .. كان الشبح يقترب مني كثيرا .. أصبحت المسافة التي تفصله عن العليقة أقل من متر واحد ..وكان دائم التلفت يمينا وشمالا .. اصغيت بسمعي جيدا .. كانت جميع حواسي منتبهة .. تعيش حالة الانذار المشدد .. كنت أسمع صوت تنفسه يأتي مصحوبا باللهاث .. عندها ، وكمن ينادي على حبيبته من وراء سياج دارها ، صحت بصوت خافت وصلب أيضا .. ((قف)) ..

كان للـ ((قف)) هذه أثر السحر عليه .. حيث شلت كل حركة فيه . حتى تنفسه ، لهاثه ..

صوبت بندقيتي نحوه .. أحسست أن حركة الشبح قد ارتبكت .. كان صوتي مفاجأة لم يكن يتوقعها ..

صعق تماما .. كان صوتي تيارا كهربائيا بضغط عال .. ربما لم يكن قد تهيأ لهذه المفاجأة .. برغم كثرة ما مرّ به من مفاجآت .. رفعت رأسي من على قمة العليقة ، فرفع يديه الى الأعلى مستسلما .. تحدث بكلمات لم أفهمها .. عندها عرفت أنه واحد من جنود الأعداء .. تحركت نحوه ، وبسرعة انخطاف البرق ، سحبته الى خلف العليقة ، عندها سمعت صوت بعض الاطلاقات النارية ، كان صوتها يأتينا من الجهة المقابلة لنا .. هل كان أصدقاؤه هناك قد احتفلوا بسلامة وصوله فراحوا يطلقون العيارات النارية ؟ في اللحظة التي فكرت بهذا

الاحتفال الحربي ، أسرعت نحو أسيري ، وأحنيت رأسه الى الأسفل .. كان صوت الرصاص قد أشتد أكثر مما كان عند البدء .. لم يكن احتفالا إذن ..

اقتربت من أسيري ، وطلبت منه بإشارات من يدي أن يجلس قرب العليقة ، ففعل دون أن ينبس ببنت شفة . رفعت رأسي قليلا الى الأعلى ، رأيت أكثر من فوهة صغيرة تلتمع فيها النار .. تومض وتنطفيء .. وكان صوت الاطلاقات قويا وحادا يملأ الفضاء من حولنا .. تساءلت : هل شاهدوني ، فأرسلوا هذا الشاب ليكون طعما سهلا كي يحددوا جيدا مكاني ؟ ربما كان ذلك تدبيرا احترازيا من قبلهم .. ربما عرفوا بنا فأرسلوه .. هل شاهدونا عند مجيئنا ؟ أسئلة كثيرة انتشرت في رأسي ، إلا أنني لم أجد جواباً شافياً لها .. لكنني فرحت كثيرا ، ليس لسماعي صوت الرصاص ، أو لعدم وصولي الى إجابة مقنعة عن تلك الأسئلة .. وإنما كان مبعث سروري وفرحي تلك اللحظة التي كانت فوهات البنادق أمام عيني تلتمع بوميض خاطف ، هو إتاحة الفرصة لمحمود وكاظم كي يتقدما أكثر نحو مواضع العدو .. سوف يكون كل جهدهم متجهاً ومنصباً نحوي ، سيوجهون نيران بنادقهم نحوي .. وقبل أن استرسل في خيالاتي ، ركنت الى حقيقة ، ان أسألتي ستكون هذه اللحظة بدون جواب ، إلا أنني على أية حال لن اسهل مهمتهم ، لا أستخدم بندقيتي تجاههم .. سأجعل من بندقيتي

كسيف (خلف) حديدة باردة .. أعرف أنهم يحاولون دفعي الى أن أفتح النار تجاههم ، فيستمكنوا موقعي ، عندها تبدأ نيرانهم على هذه العليقة المسكينة ، فيحرقوني أنا وأسيري .. يا لخيبة أمله في النجاة منهم ..

مر الوقت سريعاً .. وبدأت أولى اشعاعات الضياء الأول تمتد لتحتوي كل شيء تحتها وشملتنا نحن الثلاثة أيضاً ، أنا والأسير الذي لم أعرف أسمه حتى الآن ، والعليقة ، وكنا الثلاثة مزروعين في هذه الرمال الناعمة .. ولكن هل أعود لوحدي ؟ أقصد أنا وأسيري ؟ وماذا بشأن محمود وكاظم ؟

من الصعب أن تتخذ قراراً بالبقاء خلف هذه العليقة وبين يديك أسير ، لكن من السهل القول أن العودة ، وقبل تحول الغبش الفضي الى نهار شمسي ، الى الوحدة في هذا الوقت هو الصواب .. عندها رحت أحزم أمري للعودة ، نعم .. يجب أن آخذ أسيري معي وأعود الى حيث ينتظرنا زاهد الذي تركناه على مبعدة كيلومتر واحد ..

كان الاتفاق أن نعود متفرقين كما بدأنا الحركة من مكان زاهد .. وقبل أن يأتي النهار .. هكذا صدرت لنا الأوامر .. وهكذا سأصدرها الى هذا الأسير بإشارة من يدي .

الحفل الذي سقطت فيه الحلوى من السماء

الحفل الذي سقطت فيه الحلوى من السماء

كنت أستمع مع زملائي في القاعة الكبيرة التابعة لبناية الكلية التي كنت طالباً فيها .. الى خطبة أحد رجال الدين .. وقد كثرت خطبهم في الآونة الأخيرة بحيث أصبحت بين درس وآخر ، إذا لم نقل بين خطبة وأخرى خطبة ثانية أو وسطية ..

كان هناك ، وبالقرب من منصة الأستاذ ، ثلاثة من رجال الدين ، أو هكذا بدت هيأتهم لمن يراهم .. معتمرين العمائم السود والبيض .. إذ انتصبت عمامة سوداء بين عمامتين بلون القطن .

كان أحدهم ما زال شاباً فتياً ، ذكرني بصديق لي كنت كثيراً ما أراه يرقص على أنغام أغاني ((كوكوش)) في النادي الترفيهي لمنطقتنا .. إلا أن الذي يقف أمامي ربما نسي أو تناسى أغاني ((كوكوش)) وراح يملأ أذنيه بكلام المعممين .

كان يحمل بيده اليمنى (ربما تبركاً) ملفاً يضم مجموعة من الأوراق .

وكان يقف وراء العمائم الثلاثة أكثر من عشرين شاباً .. يضعون على رؤوسهم شرائط حمر وخضر .

لحاهم السود تدل على انتمائهم الى حرس الثورة ، منظرهم معروف للجميع .. كنا نخشاهم كما نخشى الكلاب السائبة .. إذ كانت اسلحتهم المتنوعة (الامريكية والاسرائيلية) هي التي تتكلم نيابة

عنهم .. لأن السكوت من ذهب اما الكلام فمن نحاس صنعوا به اطلاقات البنادق وما أرخص النحاس وأغلى الذهب ..

بدا لي المنظر يحمل بعض الطرافة .. طرافة مبكية .. رجل دين يحميه السلاح !! تساءلت مع نفسي ، بل لأقول الحقيقة ، أعدت نفس السؤال الذي طرحه عليَ أخي الذي يصغرني بأعوام ، وباستغراب شديد ، كيف يكون هذا ؟ رجل دين تحت حماية السلاح ، أو أنه سلاح مصوب نحو رجل الدين ؟ كيف يمكن حل هذا اللغز ، الطرفة .. الـ ..

كان سؤال أخي يحمل بعضاً من الاستغراب وبعضاً من السخرية المرة .. وها أنا أتساءل مع نفسي ، وأعيد السؤال ذاته .. كيف ؟! ممن يحتمي رجل الدين ؟ وهل يخاف حامل السلاح من رجل الدين الذي أمامه ؟ أيهما خائف من الآخر ، أو متحرز منه .

أخرجني من دوامة الأسئلة تلك ، الصوت الرقيق الذي ملأ القاعة ، هل كان يقلد نبرة صوت ((كوكوش)) ؟ كان صوته هو بالذات .. صوت رجل الدين الشاب الذي يحمل بيده اليمنى ــ وما زال متمسكاً بحمله ــ ملف الأوراق وهو يدوي بين جدران القاعة الكبيرة ، حيث تحمله اللاقطات الصغيرة التي امتلأ بها سطح منصة الاستاذ لتوزعه بالتساوي وبالعدل المطلوب بين السماعات المزروعة على الجدران الجانبية ..

صاح بالحاضرين :ــ

ــ أن الوطن في خطر ..

سمع صوت من منتصف القاعة يقول :ــ

ــ آه على الوطن ..

أن الأمة في خطر ..

تنهد الصوت نفسه قائلاً :

ــ آه على الأمة ..

ــ ان الإسلام في خطر ..

صاح صوت نسائي من منتصف القاعة : ــ

ــ وا إسلاماه .

ثم دعانا للتطوع دعانا لحمل السلاح ضد أعداء الإسلام والأمة والوطن والإمام خميني .

ثم صرخ بنا بصوت كالزعيق :

ــ يجب أن نحرر أرض العراق .. يجب أن نحرر كربلاء والنجف والكاظمية .. نحرر القدس ونجعل من اثيوبيا دولة إسلامية ..

صرخ أحد الحضور ، بعد أن انتصب واقفاً في أحد جوانب القاعة :

ــ تحيا اثيوبيا دولة إسلامية ..

ردد العبارة ثلاث مرات لوحده .. وكم كانت خيبته عندما جلس .

صرخت السماعات في جو القاعة :

ــ يا لثارات كربلاء .

ثم انتحب باكيا ..

بكت العمامات البيض التى على جانبيه ..

وصرخت الأشرطة الخضر والحمر التى خلفه بصوت واحد ، مؤثر .. حنون :

ــ يا لثارات كربلاء .

ثم .. دوت عدة اطلاقات بثتها رشاشات (عوزي) في أرجاء القاعة ..

كان الحماس قد أخذ بنفوس أصحاب الأشرطة الحمر ، فلم يتمالكوا أنفسهم أمام طلب الثأر ، وأسلمة اثيوبيا فسكتت الألسن عن الكلام .. وتحدثت فوهات بنادق (عوزي) تصرخ يا لثارات كربلاء .. فيما راحت فوهات بنادق (الجيسي ــ GC) الامريكية الصنع التي تحملها الأشرطة الخضر ، تهلهل في القاعة وتنثر على الجالسين (من السماء) وهو يتساقط من سقف القاعة أثر كل حرف من حروف كلمات (الجيسي) .

كانت كل الرؤوس مشرئبة الى السقف .. تكسرت الرقاب وهي تميل بدرجة (٩٠) الى الخلف .. وكأنها تنتظر السكاكين .. ما أجمل (نحر) الفتاة التي كانت تجلس بالقرب مني ، بعد أن انزاح عنه الايشارب المورد ..

اختلطت الثارات ، باثيوبيا واسلامها المرتقب .. بالرصاصات التي رسمت في سقف القاعة تشكيلات زخرفية محفورة .. وامتلأت العيون الجاحظة تحت السقف بنثار الجص الأبيض .. فيما راحت السماعات ، بعد أن أخذتها الحماسة تصرخ يا لثارات كربلاء .. يا لثارات كربلاء ..

هكذا بدأت الخطبة .. وهكذا ختمت ..

لم يتحرك أحد ممن كان في القاعة .. ليس بسبب إحمرار عيونهم بعد أن اتعبتها راحات اليدين . وليس بسبب عدم سماعهم لندائه ، لاختلال عمل المطرقة والسندان في اذان الجالسين .. وليس بسبب انشغالهم بتنظيف شعور رؤوسهم من نثار الجص الأبيض .. أن السبب الحقيقي ، الذي توصلت إليه بعد أكثر من شهرين ، هو انشغال الجميع في أمور لا علاقة لها بما يقوله هذا الشاب المعمم .. هذا هو السبب الرئيس لعدم استجابة الجميع لندائه .. لكن الأطرف من ذلك ، هو ما أخبرني به زميلي قبل أيام ــ وكان يجلس في الكرسي الذي يقع أمام الكرسي الذي كنت أجلس عليه ــ بعد أن سألته عن سبب عدم تطوعه ، قال : كان كل تفكيري مركزاً في الملف الذي يحمله هذا الشاب المعمم .. كنت انتظر منه أن يحوله من يده اليمنى الى يده اليسرى ، وطيلة مدة الاحتفال ، ظل الملف في مكانه .. وعندما خرجنا من القاعة لمحت الشاب نفسه وبيده اليمنى الملف ذاته .. وعلى رأسه العمامة السوداء

ذاتها والكل راكب في سيارة المارسيدس السوداء التي جاءت بهم الى الكلية .

حاولت العمامة السوداء مرة أخرى ، وبكلمات أحسست بها وهي محملة بكل ما هو رجاء وتوسل .. تحدث عن الجنة ومفاتيح أبواب قصورها الياقوتية واللازوردية والابنوسية .. وعرج على النار التي وصفها بأنها تضاهي أفران الغاز الهتلرية .. تحدث عن الثواب والعقاب .. والحسنة بعشرة أمثالها .. راح يزوق لنا الموت .. وعندما وصل الى طية عمامته الأخيرة .. نقل الينا تمنيات خميني بأن نموت شهداء لنبعث شهداء ، حيث الجنة مسكناً لنا بانهرها الثلاثة ، العسل واللبن ، وبلع النهر الثالث ، وسكت .

كان هو الوحيد الذي تحدث كثيراً بصوت عالٍ .. أمام الحضور فكانت السنتهم قد يبست نثار الجص .. وارتاحت السماعات واللاقطات .. كانت فرصة لها بأن تسحب نفساً طويلاً من الهواء المليء بنثار الجص ..

سقط دبوس صغير كان يلم مجموعة من أوراق إحدى الطالبات على أرضية القاعة ، فدوى صوت سقوطه عندها انتبه الجميع .. وراحت السماعات تزعق من جديد ..

لنحرر القدس .. طريقنا عبر كربلاء والنجف ..

عندها راحت الهلاهل تصدح من فوهات الـ (عوزي) و (الجيسي) .. وتساقط (من السماء) وبكى هو بحرقة وبكت العمائم البيض ، والأشرطة الخضر والحمر ..

ببكائه ، وكلماته ، وما كان يوزعه علينا من حلوى (من السماء) راح يدعونا الى التطوع .. إلا أنني أحسست من خلال نظراته التي راحت تنتقل من كرسي الى آخر ، وكذلك من خلال اصفرار وجهه ، أنه سقط في بركة سوداء من وحل الفشل والهزيمة .. فراح بإصرار عجيب يحاول أن يبتلع جرعات الهزيمة والفشل .. حينها أيقنت أنه سيحدد أحد أبواب القاعة ليخرج منه مرفوع العمامة ، منفوخ الصدر ليس وهو يجر أذيال الهزيمة والفشل فحسب ، بل أذيال عباءته السوداء ..

تأسفت كثيراً لحاله .. حقيقة تأسفت لما وصل إليه .. أكدت مع نفسي قائلاً : سيكون موقفه حرجاً أمام خميني .. ماذا سيقول له .. هل سيبلغه رسالة الفشل والهزيمة . وكيف سيتم الابلاغ .. هل يقول كلمته همساً في إذن خميني ، أم يتركها تنتقل في الهواء حتى أذني الرجل العجوز ؟

عندها افترت شفتيَ عن ابتسامة صغيرة ، تحيرت أن كان مصدرها التشفي من هذا الشاب أم أنها بسبب ما انتابني من سرور لسبب آخر ؟

انتبهت الى وجود الشاب وجماعته في مكانهم خلف المنصة .. مـــا زالوا هناك .. وما زال هو في مكانه كحمار حرن في الطريق .. يا لـــها من وقاحة .. ماذا يريد أكثر من هذا ؟ حتما سيجرب معنا ما في جعبتـــه من كلام ووسائل رخيصة وقذرة .. هكذا جالت الأفكار في رأســـي وأنـا اصطلي ناراً على أحـد كراسي هذه القاعة التي كثيراً ما استمعت فيـــها الى محاضرات أساتذة أجلاء ..

راح يمسح بيده اليسرى على لحيته السوداء الصغيرة ، ابتســـمت في سري ، كانت لحيته مثل لحية تيس مسن .. رأيته يميل برأسه الـــى مـــن وقـــف الى يساره كمن يفشي سرا في الخفاء .. كان يلقي الكلمـــات في إذن جاره همساً .. وبـــدت علـــى ملامح وجهه المصفـــر علامـــات انزعاج وملـــل .. بعد أن انكمشت ملامـــــح وجهـــه معلنـة الفشـل والخذلان .. ودون أن يشعر بأية حركة ، وجدنا انفســنا مطوقين داخـــل القاعـــة ومـــن كـــل الجهـــات .. كـــان جـــداراً مربعـاً مـــن فوهـــات (العوزي) و (الجيســـي) يحيط بنا من كل جانب .. فراحـــت وجـــوه الطلبة تعكس صور الاحتجاج والرفـــض الصـــامت الملـــون بالدهشـــة والمفاجأة .. غادرت الألسـن لغـة الكـلام بعـد أن صادرتهـا فوهـات (العوزي) و (الجيسي) .. وتيبست الألسن .. كانت الأفـــواه تنطبـق على قطع مستطيلة من الخشب الجاف .. خفنا أن تحرك الفكيـــن كـــي لا تتكســـر الســـنتنا .. أصبحت القاعـــة واحـــدة مـــن قاعـــات مـــدارس

الخرسان .. إذن هذا هو يوم الحساب .. وبرغم برودة جو القاعـــة ، إلا أن أجسادنا غرقت بالعرق ..

الصمت ، هو سيد الموقف .. والدهشة الممزوجة بالحيرة هما مـــادة الهواء الذي رحنا نستنشق منه ..

كانت الصدمة قوية ولا مفر منها ، فالعدو أمامك والبحـــر خلفـك .. وكل الكلمات تحطمت فأصبحت أشلاء من حروف فقدت أصواتها .. حتـــى السماعات كـــان صمتها احتجاجاً .. وتعرق خشـــب صناديقـــها ، وراح يقطر قطرات الاندهاش ..

كان منظرنا ونحن نركب الشاحنات العسكرية قد فتح طريقاً الى فـــم ذلك الشاب المعمم ، فارتسمت الابتسامة على شفتيه وشـــفاه جماعتـــه ، فيما كانت وجوه زملائي الطلبة قد تحول لونها الـــى مـــا يشـــبه أوراق الأشـــجار عنـــد تساقطها في فصل الخريف .. لقد تركنـــا دماءنـــا فـــي القاعة .. وبـــأم عينيّ هاتين رأيت دمنا يتجمع في أماكن مـــن القاعـــة خارج فوهات (العوزي) و (الجيسي) .. أصبحنا آلات ..

أن المسافة التي تفصلنا بين القاعة تلك ، وهذه الأرض التي كـــانت نهاية رحلة الشاحنات العسكرية التي كدسونا فيها كـــالخراف ، لا تقـــاس بالمقاييس التقليدية ولا حتى بالرياضيات المعاصرة التي تعلمناهـــا فـــي المدرسة .. وأن جميع العلوم التي تعلمتها فـــي الكليـــة ، الرياضيـــات ، الفيزياء ، المنطق ، وحتى ما كان يتلوه علينا المعممون من دروس فـــي

الشريعة وأصول الدين ، كلها لم تجد طريقاً للتطبيق العملي على هذه المسافة .. أنه شيء خارق ، كما القصص التي يسمعنا إياها أولئك المعممون في محاضراتهم بين درس الفيزياء ودرس الرياضيات ... شيء لا يقبله العقل والمنطق .. ولا الفارابي ، ولا ابن سينا .. أنه لشيء عظيم ، بين أن تكون جالساً للاستماع الى محاضرة الاستاذ ، وبين أن تجد نفسك بعد تلك الحفلة في مكان لا تعرف عنه شيئاً .. بين أن تتسلم من استاذك العلم ، وبين أن تتسلم هذه الخرقة التي يدعونها (البدلة العسكرية) التي ــ يعلم الله ــ كم جندي قد ارتداها قبلي قبل أن تصل لي .. بين هذه وتلك ضاع كل شيء بالنسبة لي ، كما ضاعت أغاني ((كوكوش)) من ذاكرة ذلك الشاب المعمم .. فتهت بين السؤال والجواب .. إلا أن الشاحنة التي كنت مكدساً فيها لم تتّه بين القاعة وأرض المعركة .

حدثونا في المعسكر ، عفواً ساحة المعركة نفسها ، بأن العدو سينهزم أمامنا حتماً .. وأن البصرة .. آه البصرة ، تلك المدينة التي كثيراً ما تشوقت لرؤيتها ، بصرة ألف ليلة وليلة ، بصرة السندباد والحسن البصري .. البصرة .. نعم ، قالوا لنا : أنها لا تبتعد عنا سوى امتار .. لا تفصلها عنا سوى هذه التلال الصغيرة ، وامتد أكثر من أصبع قد خرج من كُم جبة سوداء أو بيضاء ، ليرينا تلك التلال .

أنتهت محاضرة البصرة .. وجاءت عمامة بيضاء لتلقي علينا محاضرة في علم الأخلاق .. بدأها المحاضر بوصية (أخلاقية ، منطقية) قال : يجب ان لا تقعوا في الأسر . وطالت المحاضرة .. إذ كان المحاضر فيها شيخا طاعنا في السن .. كان واحداً من ملاكي السلطة .. قال لنا في محاضرته العلمية تلك : أن الشمس تشرق من الشرق وتغرب في الغرب .. فلا تغربوا أنتم في الغرب .. ولا تقعوا في الأسر . لأن الأعداء سيقتلونكم ويشربون من دمكم . (يا له من معمم مغفل . ألم يعرف أن دمنا قد تجمع هناك في أركان قاعة الدرس) .. قلت مع نفسي . لن أندم على شيء عندما أقع في الأسر .. لأنني بلا دم .. اقصد أن جسدي لا يحتوي (سي سي) واحدا من الدم .

ثم اردف قائلاً كمن يصحح خطأ وقع فيه : أذا وقع أحدكم في الأسر فيجب عليه ألا يتحدث مع أي جندي عراقي ، حتى لو كان يعرف العربية ، لأن ذلك سيفيد الأعداء ..

يا له من محاضر غبي .. لقد ناقض نفسه بنفسه ، قلت لنفسي وأنا أجر حسرة من ورائي وأمامي .. وامتلأ كياني باليأس الذي وجد طريقه في الأماكن التي كان الدم يجري فيها .. وتساءلت بعد أن أخرجت ذاكرتي وتفكيري خارج حدود محاضرة هذا المعمم العجوز .. إذن ما

كنت أحلم به لم يعد يفيدني بشيء .. كنت أحلم في التحدث مع أي عربي بلغة القرآن التي تعلمتها من والدي مع أخي الصغير .. إذن لا تفيدني بشيء .. لقد ذهبت أيام التعلم سدى .. وأصبحت بالنسبة لي هي الفخ الذي يجب ألا أقع فيه .. عندها تمنيت ألا أعرف كلمة عربية واحدة حتى .

كان والدي يقول لنا ، أنا وأخي ، أن اللغة العربية ستكون بالنسبة لكم تعويذة ((افتح يا سمسم)) ، مصباح علاء الدين ، ستفهمون الدين من خلالها .. وأكد ، أن الإسلام واللغة العربية صنوان لا يفترقان .. وعندما يزور أحدكم ــ كان يؤكد دائماً ــ مراقد الائمة في النجف وكربلاء ، ستفيده كثيراً .

النعامة التي دست أنفها في الرمل

انتبهت الى صوت صراخ .. لا .. لا .. لا ..

كان الصوت قد فاجأني .. هزني هزاً .. أجفل في كياني ما فيه من صفاء وهدوء وسكون كنت أحافظ عليه تلك اللحظة .. وما أحوجنا الى السكون ، والى الهدوء .. الى صفاء البال ، والتفكير السليم .

لقد أحدثت تلك الصرخة خللاً في عالمنا الذي كنا فيه .. زلزلت ذلك السكون المخيم علينا ..

ألم أكن قبل لحظات سوى مراقب له ، تركته جالساً بالقرب مني .. إلا أنه فاجأني بصراخه .. كان جاثياً على ركبتيه ، وهو يضرب بقبضتي يديه على رمال الأرض .. لا .. لا ..

وقفت خلفه .. كان الجو بلون الفضة .. أدرت ناظري الى جميع الجهات ، كل شيء ينعم في سكون تام .. وكانت هناك ريح واهنة الحركة ، تداعب العليقات والأعشاب التي كنا نحتمي خلفها .. تركته يصرخ .. ولكن ، كان في صراخه خطر يهددنا .. تركته يبكي ويصرخ .. يلطم خديه كالمرأة .. لم أسأله .. مرت دقائق وأنا واقف خلفه .. منتبهاً لأيما حركة تصدر منه ، أو من مكان آخر ..

كانت الأرض التي جثا عليها رملية .. وكان كل ما حولنا رملاً في رمل .. لم تمض سوى نصف ساعة على تفتح نور السماء .. حتماً ، إننا نبدو لمن يرصدنا كأشباح تتحرك .. أزت رصاصة في الجو المحيط بنا .. تبعتها أخرى .. تكسر السكون المحيط بنا ، فرميت بجسدي

على رمل الأرض .. كان هو الآخر قد أتخذ وضع الانبطاح .. شنابك ذراعيه تحت وجهه ، وأجهش في البكاء مرة أخرى .. رفعت رأسي ، أدرته الى اليمين ، لم يكن ثمة شيء يستطيع سترنا سوى هذه العليقات .

كان نظري يصطدم بأفق خلته قريباً منا .. أدرت برأسي الى جهة الشمال ، كانت هي الأخرى أرض جرداء تنتزع الريح منها ذرات رملها الناعمة لتسفوها بوجهي .. دوت اطلاقة مدفع .. تساءلت : هل أظل ساكناً ؟ يجب أن أفعل شيئاً ما .. أن أصل بأسيري سالماً الى موضعنا .

لم أفكر بمصير رفاقي .. ولم اسأل عنهم ، ومن اسأل ؟ أنهم الآن بالقرب من قطعاتنا يتنعمون بالراحة .. كلا .. هم الآن يفكرون بي .. بمصيري ..

قال العريف محمود ، ونحن نبدأ مسيرتنا في رحلة الواجب : عند العودة يجب أن نلتقي حيث يكون زاهد .. وعندما يحدث لأحدنا ما يعيقه عن العودة ، لا سمح الله ، فيجب على الآخرين الوصول الى قطعاتنا سالمين .. يجب إيصال جميع المعلومات التي أرسلونا من أجلها ..

إذن المهم ــ هكذا حدثت نفسي مؤكداً ــ أن أصل بالمعلومات .. بكنز المعلومات الذي معي .. بهذا الأسير .. أن نصل سالمين .. حتماً

سيفيدهم هذا الأسير .. سيكون لهم مصدراً جيداً للمعلومات .. سيصحح المعلومات الخاطئة .

انتبهت إليه وهو يمسح ما تبقى من ذلك السائل الزلالي الذي اندافت فيه بعض ذرات الرمل ، في عينيه .. لبس نظارته الطبية بزجاجها الشفاف .. ثبتها جيداً على ارنبة أنفه التي ذكرتني بامتداد فوهة دلة القهوة العربية .. أحسست أن ضحكة ستنطلق من بين شفتي .. استطعت كتمانها .. سحبني أنفه الى عالم آخر .. الى ذكرياتي .. الى أنف أخي الذي يصغرني بسنوات .. كنا نهزل معه وننادي عليه بـ ((أبو ماصول)) (*) كان أنفه رفيعاً برفع ((الماصول)) .. لم يكن كانوفنا .. رفيعاً ممتداً الى الأمام .

تنبهت فجأة الى أسيري ، عندما حاول القيام بحركة ما .. وفجأة تهالك على الأرض .. مد ذراعيه أمامي بعد أن وازى فيما بينهما .. كان يطلب مني أن أقيده .. لقد عرف ، أن لغة الإشارات هي اللغة الوحيدة التي يمكن التفاهم بها بيننا ..

ربما اعتوره احساس بالتخاذل ، أو ربما الجبن في هذه اللحظة .. فكرت ، وأنا أجلس أمام هذا الشاب الذي لا يتجاوز العشرين من عمره .. وكانت الأرض تحتنا قطعة من الصحراء .. فكرت : هل جاء حقيقة

(*) الماصول : هو آلة نفخ موسيقية ، يصنع يدوياً من القصب .

ليدافع عن قضية سامية يؤمن بها إيماناً جعله يقاتل من أجلها ، أم أنه كالآخرين قد خدع ؟ تساءلت : لماذا نظر الى جهة قواته وبكى ، هل أحس بالذنب لأنه وقع في الأسر .. أم أنه الجبن .. أم لأنه عرف الحقيقة تلك الساعة وراح يودع أهله عن بعد ؟

اسئلة كثيرة خطرت لي ، وهو ما زال جاثياً على ركبتيه ، مادا ذراعيه أمامي كأنه يدعوني الى تقييدهما .. أن اخذه أسيراً تحت تكسر الفضاء المحيط بنا جراء أزير قنابل المدافع التي راحت تجد لها طريقاً فوق رؤوسنا .

كان في عينيه توسل ، أحسست به يسيل معجوناً بدموعه منسلاً تحت شعيرات لحيته السوداء ، وبارتعاشة شفتيه ، وهذه الملابس الرثة الممزقة المتسخة .

ما زال جاثياً أمامي على الأرض .. لكزته في ساقه ، رفع رأسه ، اماله الى الخلف ، فواجهتني نظارته الطبية وقد علتها بعض ذرات الرمل الناعمة .. حتماً أنه قد أدخل انفه في رمل الأرض ، كتمت ضحكة كادت تنطلق من فمي .. قلت مع نفسي : أنهم جبناء .. جبناء كالنعامة المطاردة ..

كانت اللغة ، كوسيلة للتفاهم بيننا ، معدومة ، لا أنا أعرف الفارسية ، ولا هو ينطق بالعربية .. وكان كل واحد منا عالماً قائماً

بذاته . فكل واحد يفكر بما يريد لنفسه ، وتظل الإشارات هي الحرية بنقل أفكار أحدنا للآخر ، ترجمة لما يجول بخاطرنا .

افهمته عن طريق الإشارات يجب علينا أن نتقدم .. وكانت إشارات يدي تحكي له ما أريد قوله .. هز رأسه ليفهمني أنه يرفض مثل هذا العرض .. نهضت بجسدي من على رمل الأرض ، واستويت واقفاً ، إذ كان كل شيء حولنا هادئاً ساكناً بعد أن توقف الرمي المتبادل .. كان ذلك فرصة لنا لنتحرك نحو قطعاتنا .. إلا أنه ما زال ممتداً على الأرض .. أمسكت بياقة بدلته ، حاولت رفعه من على الأرض .. كان جسمه يقاومني .. مددت يدي الأخرى إليه ، سحبته الى الأعلى ، جثا مرة أخرى على الأرض ، كان يقاوم .. أحنى رأسه الى الأسفل ، رفع ذراعيه وأحاط بهما رأسه .. تكور جسده ، بان ظهره من الخلف وقد ألتوى قليلاً .. كان كمن يصدعنه ضربة موجهة الى رأسه .. ربما فكر بأنني سأضربه .. أقتله ، أشرب من دمه .

أمسكته من ذراعيه .. رفع رأسه ، همهم بكلمات لم أفهمها .. تحولت الكلمات على شفتيه الى علامات للتوسل .. أشرت له بيدي أن يتقدم أمامي .. نهض واقفاً .. وما زال الرمي متوقفاً .. دفعته الى الامام ، فتحرك .. محني الظهر ، جسد متهالك .. خائر القوى .. أسير وهو يسير أمامي .. وما كدنا نتحرك خطوات ، حتى دوت قذيفة مدفع ..

سمعنا أزيزها يشق الفضاء .. انفجرت بعيداً عنا .. تلتها أخـــرى كـــانت أكثر قرباً منا .. اذن فنحن مرصودين ..

هل شاهدونا ؟

تساءلت مع نفسي في الوقت الذي حاول أن يرمـــي بجســـمه علـــى الأرض كرد فعل لحماية نفسه من انفجـــار القنبلة .. تشبثت بـــه كـــي لا أدعه يفعل ذلك .. صرخت به : جبان .. جبان .. هيا تقدم .

كنت أعرف أنه لا يفهمني .. إلا أن تصرفه أغاضني .. حمـــدت الله على أني لم استعمل يديَ أو سلاحي معه في تلك اللحظة ..

دفعته بيدي مجبراً إياه على التحرك الى أمام .. خطا خطوة واحـــدة فأنهمر الرصاص حولنا .. (هل كان طعماً لي لأقع في الأسر) .. كـــان صوت الرصـــاص يمزق الهواء الذي نتنفســـه ، ويـــترك وراءه أزيـــزا مضجـــراً .. ورائحة تعودتها أنوفنا .. (هل كان رميـــهم موجـــهاً إلـــيَ بالذات) .. كان الهواء حولنا يتمزق الى قطع صغيرة ، عندهـــا ســـمعته يصرخ : لا .. لا .. لا أريد أن أموت .. لا .. لا .. وتهالك جسده كتلـــة واحدة على الأرض ..

شركة التصدير

حاولت أكثر من مرة أن أحد من اندفاعه .. أما أبي ، فقد مـــلَ مـــن الحديث معه .. ولكنه بعد أن عرف صلابته ، وإيمانه بمبادىء لا يحيـــد عنها ، لم يشأ أن يفاتحه بالموضوع مرة ثانية .

كان والدي معلماً في إحدى المدارس الابتدائية ، كان تقيـــاً .. يقـــرأ القرآن كثيراً ، ويؤدي الفرائض كلها .. وعندما بدأت الحرب لم نعـــــرف عنه شيئاً .. كل الذي عرفناه ، أنه معتقل في أحد معسكرات الحـــــرس ، لأنه استطاع وبكل شجاعة أن يقول : لا ، رفض الذهـــاب الـــى جبـــهات القتال .. كان يقول لي ولأخي ، بأن الإسلام دين محبة وتســـــامح ، وأن خميني شاه جديد ، اعتمر العمامة ، ولبس الجلباب ، فيجـــب علينـــا إلا نصدقه ، إلا أنه كان في الوقت نفسه يحذرنا .. كـــان يريدنـــا أن نكـــون حريصين على كلامنا .. قال بالحرف الواحد ، وهو يحذرنا ((أن الحـــائط يسمع ما نقول)) .

قال لي ابي مرة :

ــ أنتبه لاخيك .. راقبه عن بعد .. دعه يفعل ما يريد .

ســـكت لحظة ، وبعد تفكير أحسست به يأكل من لحمه ودمـــــه مـــن خلال تعابير وجهه الذي غضنته الأعوام ، تابع قوله :

ــ لو كنت في مثل عمره لفعلت ما يفعله الآن ، أن الحياة يا ولـــدي أصبحت لا تطاق .. دعه يبني حياته التي ينشد .

طالت خطبة والدي معي .. هكذا انتابني إحساس وأنا استمع إليه أكثر من نصف ساعة .. كان كل الذي أراد قوله لي ، أن انتبه لأخيك .. وأن تدعه في الوقت نفسه يختار ما يراه صواباً .

وقتها لم أشأ أن اسأله ، ما إذا كان قد أنتمى الى تنظيم سياسي معين ، أو أنه يعمل لوحده كواحد من الوطنيين الذين تمتلىء بهم الساحة السياسية في مدن ايران .

لم أسأله عما يريد أن يفعله .. ولكنني عرفت بأنه واحد من شباب ايران الذين ضيعتهم الموجة الخمينية السوداء .

كان يصغرني بعامين .. شاهدته وهو يقود إحدى المظاهرات عند هبوط طائرة (الايرفرانس) التي كان يقلها خميني عند وصوله الى ايران .. كان يحمل بين يديه صورة (المنقذ) ــ كما كان يحلو له أن يسميه ــ ويؤكد دوماً ، أنه سينقذ ايران من الشيطان الأكبر .. وستعود ــ يقول مؤكداً ــ الى سابق وطنيتها ، سيعود مصدق مرة أخرى .. وراح يسهب في المدح ، وما ستصل إليه ايران في عهد خميني .

كنا ، أنا وأبي وأمي ، نصغي لما يقول بحماس زائد .. لم أره أكثر حماساً مما هو عليه تلك اللحظات .. كان خميني بالنسبة له المخلص الذي جاء لينقذ شعوب ايران من الشاه وجرائمه .. ومن الشيطان الأكبر ..

لقد قتله مخلصه بيديه .. فبكته أمي كثيراً عندما جاءوا به إليها .. وقد أزرق جسده ، حيث امتلأ بالكدمات .. كان جسده خارطة تحكي قوة وصلابة إيمانه بما يعتقد .. كان أجرأ مني ، حيث استطاع أن يكسر ذلك الطوق الذي ضربه حولنا أبي عندما قال : ((عليكم أن تحرصوا على أنفسكم .. انتبهوا لكل كلمة تريدون قولها .. ابتعدوا عن طريق هذا الخرف وجلاوزته)) .. كان والدنا مسالماً ، وكان أخي أكثر اندفاعاً منه .. هكذا قال لي أخي مرة : أن والدنا ثوري ، لكنه ثوري سلبي .. أنه يريد أن يغير الأمور ولكن بقلبه فقط .. أما أنا فهناك عقلي ولساني ويدي .. أنني أكثر ثورية منه ..

رموه قرب باب الدار .. بجسد ممتلىء بالكدمات والجروح والحروق .. تركوه وهربوا .. لم أكن أعرف بأنني عندما أفتح الباب أجد أخي جثة هامدة .. أنتابني ساعتها إحساس بشيء لم أكن أعرف كنهه .. إحساس غريب .. هل هو الخوف .. الخرس .. العمى ؟! أمسكت لحظتها بيدي قبضة الباب .. وأنا أحاول جاهداً أن أطلق صرخة .. مرة .. ثانية .. عندها دوت صرختي في أرجاء البيت كله ..

لقد قتله مخلصه بيديه .. آه .. كيف سولت لهم أنفسهم أن يقتلوك ؟ كنت تقول أن حرس الثورة هم الجديرون بحمايتها من الأعداء .. وعندما بدأت قضية السفارة الامريكية ، ومسألة الرهائن

الامريكـــان لم نرك كما عهدنا ما فيك مـــن حمـــاس وإيمـــان بخميني وجماعته .. لقد افتقدنا وقتها تلك الحماسة الكبيرة ، وتلك اللهجة التـــي كنت تتحدث بها معنا .. لقد انطفأ ذلك النور المشع بين عينيك ..

وباتت على شـــفتيك الكلمات دون أن تخرج منـــها وكأنـــها صلبـــت عليهـــا .. هل تضاءلت تلك الحماسة الشديدة لمخلصك ، أم أنك اكتشـــفت ما هو أكبر من عمامته ؟

لم تعد تجاهر بحبك لخميني وثورته .. ولم نجدك كما أنت في تلـــك اللحظات ، فأصبحت الغرفـــة التي أسكن وإياك فيها مـــــلاذك الوحيـــد .. ملجأك الجديد ، هل رآك والدنا تدخن ؟ أجزم أنه قد رآك ، لكنه اســـتطاع أن يكتم ما في نفسه من غضب .. لقد غض الطرف عنك .. كمـــا يفعـــل الرجل التقي أمام فتاة جميلة .. تركك تدخن ، لقد رأيته مرة ينظر إليـــك من فتحة باب الغرفة .. ظل ساكناً .. قلت سيثور عليك .. ســـيغضب .. سيقلب الدنيا .. ولكن كانت الدهشة هي الاحساس الوحيد الذي انتـــابني ساعتها .. رأيته يعود الى غرفتـــه هازاً رأسه حيرة وألمـــاً .. ســـمعته يهمهم بكلمات لم أفهم منها شيئاً سوى كلمة ((الله)) .. هل كان يدعـــو لك بالخير أم يدعو عليك بالويل ؟ المهم أنه تركك تدخن .. أما أنـــا فقـــد فهمت كل شيء .. فهمت أنه لم يغضب عليك ولم يزعل منك .. وهكـــذا أصبحت السكارة زادك الوحيد وملجأك الهادىء من همومك ومشاكلك مـــع

ذلك الخميني الذي صدعـــت رؤوسنا به وبأفعاله الآتية .. وقتها لم أشـــأ أن أحدثك عنها ..

آه يا أخـــي العزيـــز .. ماذا فعلـــوا بك .. لقد أكلتك الثـــورة التـــي هللت لها .. الثورة التـــي صدعـــت رؤوســـنا بمزاياهـــا ، تقدميتـــها ، اسلامها .. وبما كانت تحمل من شـــعارات كنت تتبجح بها وبما تجلبـــه من خير ورفاه ..

أين هو الخير ؟! وأين هو الرفاه ؟!

أين هو الخير ؟.. هل ما نعيش به من فقر ، وخـــوف وقلـــق مـــن المجهول الذي يتربص بحياتنا هو الخير الذي وعدتنا به .. أم أن موتـــك هو الرفاه ..؟

وسجن أبينا ؟!.. وأمك ، هذه المرأة المسكينة التي ظلـــت وحيـــدة دارها ؟!.. أتحسدها على ثوبها الأسود البالي ، أم علـــى قلبـــها الجلـــد الصبـــور .. أمـــك ، هذه الروح الإنسانية الكبيرة .. بماذا تحســـدها يـــا أخي ؟!.. أهذه هي الثورة التي بشرتنا بخيراتها !؟ أين خيرات خميـــني ؟ لقد ضيعنا هذا العجوز المعتوه وزمرته .. لقد ضاعت ايران .. ضـــاعت كل آمال شعوبها يا أخي .. ضاع كل شيء في متاهات تصديرها .. لقـــد أصبحت ثورة الشعوب الايرانية سلعة تصدر الى الخارج .. أصبـــح لـــها ولخميني وكلاء في خارج ايران .. نسوا الثورة وراحوا يتسابقون علـــى تصديرها .. الى أين ؟ الله أعلم .. إذ أصبح شـــباب إيـــران هـــم مـــادة

التصدير .. بأشكال وأنواع .. بضاعات متنوعة .. أطلب ما تشاء .. هل تريد أن نصدر لك شباباً على هيئة أسرى ، أم تريد شباباً بهيئة جرحى ، أم بهيئة قتلى .. أطلب ما شئت فحرس الثورة مسؤول عن التصدير وفي كل الأوقات والفصول .. وفي كل مكان .. هل تريد أن نصدّر لك سجناء سياسيين أم سجناء معارضين .. أم أن تكون أنت بالذات وجسدك المثخن بالجراح هو ما صدروه الى أمك ؟!

لم تعد هناك – يا أخي – ثورة بيضاء ، ولا خضراء .. لقد أصبحت سوداء .. سوداء بنهاراتها ولياليها .. سوداء بملابس أطفالها ونسائها .. سوداء بشبابها الشيوخ .. وشيوخها الباحثين عن لقمة خبز لأطفال من ماتوا في جبهات القتال .. سوداء بجيشها المنكسر المهزوم . هذه هي حال ايران يا أخي قبل وبعد أن جعلوك سلعة وصدروك بلا أنفاس الى أهلك .. هذه هي حالها بعد أن جعل خميني أرضها مقابر مستوردة من إيطاليا وامريكا بدلاً من الحدائق والمتنزهات التي وعدنا بها ..

لقد أصبحت شاشة التلفزيون ، وصفحات الجرائد والمجلات تزدحم بأخبار وصور المقابر التي افتتحت حديثاً على الطراز الأوربي والامريكي .. فأنمحت صور ملاعب الأطفال والمدارس ..

أصبح تصميم المقابر فناً شائعاً بدلاً من تصميم الملاعب والمدارس والمعاهد ودور العلم .. كان عليك أن تختار كلية الهندسة لتدرس مثل

هذا الفن .. بعد ان تم فتح قسم خاص بها في جامعة طهران .. ولكن يا للخيبة .. لم يتقدم أحد للدراسة فيه .. أنها اللعنة .. اللعنة يا أخي عليهم جميعاً .. وما زالت الحسرة في القلب لا تطفئها هذه المهزلة المسلية .. أنها لمهزلة أن تصدر شباب إيران على أشكال وهيئات متنوعة وتستورد المقابر .. أليست هذه مهزلة المهازل ؟!

لك الرحمة والغفران يا أخي .. لا أقول غير هذه الكلمة .. فأنا لا أملك سواها ، فقد جردونا حتى من الكلام ..

لك ولرفاقك من الشباب الذين أكلتهم ثورة خميني فأصبحوا مادة للتصدير كل الرحمة والغفران ..

أما أنا فلا أعرف مصيري .. لا أعرف كيف سيتم تصديري ، أن كل ما حولي سواد بسواد .. شيء مجهول يشدني الى اللاشيء .. ماذا أفعل بأمك الحزينة .. وماذا أصنع بأيامي القادمة ..

هناك مصير واحد ينتظرني .. يدعوني إليه ، يمد يده لي .. يشدني إليه بقوة .. أما الموت بأيدي حرس خميني ، كما مت أنت .. أو الموت برصاصة في الجبهة .. هوذا المصير الوحيد .. الموت .. الموت كما مت أنت ، وكما ماتت البسمة على شفاه والدتنا .. وكما مات والدنا ..

أنه ما زال مسجوناً .. ولكنه بالنسبة لنا ، لي أنا ووالدتي ميـــت .. ميت أبي يا أخي .. لقد مات ذلك الشيخ طيـــب القلـــب .. تلـــك النفـــس المعطرة بالخير لنا وللناس .. أما أنت فقد ارتحت من الدنيا وما فيـــها .. دنيا خميني وزبانيته .. فلك الرحمة والسلام ..

حوار تحت وابل من ذرات الرمل

لم أعـرف قبـل الآن ، أنه يستطيع الحديث بالعربيـة .. فمنـذ أن وقع أسيراً ، أو بالأحرى أوقعته أنا بالأسر ، لم يتفوه بأيـة كلمـة عربية كانت أم فارسية ، سوى تلفظه بـ (لا) .. التي كررها أكثر مـن مرة .. لهذا تخيلت وقتها أنه أخرس رغم أن الخرس عاهة تمنع تجنيـد صاحبها ، ولكن ، لا .. فما دام حكام طـهران لا يـرون الحقيقـة ، أو يتجاهلون رؤيتها ، فلا مانع لديهم من تجنيد أصحاب العاهات والمعوقيـن والأطفال.. يدفعون بهم الى محرقة الموت ، تحصدهم الألغام المزروعـة في الأرض الحرام ، ورصاص البنادق في السواتر الأمامية فيقعون كمـا يقع الجراد الميت .

هل هو أخرس حقاً .. أم أنه لا يريد أن يتكلم ما دام الحديث بيننـا عسيراً ، وما جدوى الكلام ، المهم أن أصل به سالماً الـى موضعنـا .. وهناك يعرفون كيفية التفاهم معه .. سيأتون له بمترجم .. سيترجم لـهم أقواله حرفياً .. سيعرفون منه أكثر من سر ومعلومة .. حتماً سـيفيدهم كثيراً .. خاصة ، فأن مثل هذه النماذج ، وما أكثرها في جيش خمينـي ، لهم اسبابهم الكثيرة في البوح بكـل شـيء .. سـيجيب عـن الأسـئلة المطروحـة وغير المطروحة .. سينشر غسـيل حكامـه ، لا لتجففـها الرياح ، بل لتذروها .. لتمزق ما حيك منها وما لم يُحك ..

مضى أكثر من خمس دقائق عندما ازت آخر طلقة في الجو المحيـط بنا .. هدأ كل شيء فجأة .. تساءلت وأنا أنظر حولي .. هل من الممكـن

أن نكون مرصودين ، ومن كلا الجانبين ؟ فالأرض مفتوحة ، والشمس ترسل خيوطها الذهبية ، رامية إياها على أديم الأرض الرملية .. هل يمكن أن يحدث هذا ؟!.. أجبت ، وكأني أكلم شخصاً آخر .. ربما .. عندها تمنيت أن يكون معي ناظور لأعرف ما إذا كنا مرصودين أم لا .. ولكنّ كل الذي أعرفه أن الرياح قد أشتد صفيرها هذه اللحظة .. وبدأت الرمال تتحرك .. أخذت تنتزع من صفحة الأرض بقوة .. ترفع بها الرياح .. تسيرها على شكل مجموعات .. بدأت الأرض تدفع برملها الناعم الى الأعلى .. أصبح التزاور بين ذرات الرمل ممكناً في هذا الوقت .. أخذت الريح تنشط في نقل كثبان الرمل .. لقد بدأت عملها المعتاد ..

سرنا أكثر من ثلاثة أرباع الساعة .. تساءلت : كيف يحدث هذا دون أن تصل الى مواقع قواتنا ؟ هل اضعت الطريق ؟ هل أسير باتجاه قوات العدو .. لا .. لا يمكن أن يحدث ذلك .. هكذا طمأنت نفسي وأنا أوزع نظري بين جهات الأرض الأربع . كان رأسي يدور استدارة كاملة .. لقد كانت إجابتي على سؤالي لنفسي يحمل بين كلماته كل الثقة التي لم أفقدها طيلة رحلتي هذه .

قلت ، وأنا أسير خلف أسيري .. وذرات الرمل تتساقط علينا كالمطر ، حيث أخذت الريح تشتد زاعقة بآذاننا : لا يمكن أن يحدث

ذلك .. ربما أضعت الطريق القصير الذي يوصلني بوحدتي .. ولكن لا يمكن أن يكون سيري بأتجاه العدو .

تنبهت الى أسيري فجأة ، بعد أن أنهيت جميع تساؤلاتي وشكوكي مع نفسي .. هل أوقعني هو في الفخ .. كلا .. كلا لا يمكن أن يحدث هذا .

تبعته .. أمسكت به من ياقة قميصه التي تشبع نسيجها بذرات الرمل الناعمة .. وقف ساكناً .. أدار وجهه نحوي .. كانت لحيته السوداء قد أصبحت قطعة من هذه الأرض .. لقد عرفت ذرات الرمل طريقها الى شعيراتها السوداء القصيرة .. أصبحت كل شعرة فيها تحمل عشرات الذرات من رمل هذه الأرض التي أخذت الريح تذروها في وجوهنا ، وعلى أجسامنا . وتنفذ الى الجلد فتجعل ملمسه خشناً بعد أن تداف بالعرق الذي ينز من مساماته .

ماء .. ماء .

أخيراً تكلم .. سأعرف كيف اتفاهم معه .. كان هو الآخر ينظر الى الزمزمية المعلقة بنطاقي العسكري بالقرب من خاصرتي .. نظرت الى شفتيه ، كانتا بلون الرمل .. يا بستان كأرض منع عنها الماء .. فتشقق أديمها . عندها مرتٍ بخاطري فكرة كنت قد تناسيتها ، أو أجبرت نفسي على أن تنساها في وقت ما .. كانت قد اندفعت الى خاطري وطفت على سطح ما فيه من أفكار تتصارع هذه اللحظة .. إذن قد قر قراري على

أن أطرح عليه سؤالي كي لا أدع لهذه الفكرة أن تندفع مرة أخرى الـــى خاطري .. سألته :

ــ هل أنت من حرس خميني ؟

لم أكــن أتوقع أن تصيبه الدهشة هكذا ، لقد استفز كثيراً ، تــراءى لي وجهه مــن وراء طبقــة الرمل الناعم قد أصفر ، وأخــذت شــعرات لحيتــه بالانتصــاب ، أو أنهــا قد تراءت لي هكذا .. لــم يجــب عــن سؤالي ..

: ــ أن لحيتك تكشف عن ذلك .

عندها رفع يده ، وبراحة كفه أخذ يمسح لحيته مســد شــاربيه .. وابتسم :

ــ أراك تبتسم ؟

سألته وأنا أكظم فورة من الغضب ، اجتاحتني لحظتها :

ــ لقد اخفتني بسؤالك :

ســألته :

ــ لماذا ؟

أجابني ، وكأنه يداري شيئاً ما في نفسه :

ــ لأنني أعرف انكم تكرهون حرس خميني .

باندهاش ، سألته :

ــ ولمــاذا ؟

أجابنــي :

ــ لأننا نكرههم أيضاً .

قلت له ، وأنا استحثه على الحديث :

ــ كيف ، وأنت واحد منهم ؟

ســألني :

ــ ومن قال لك ذلك ؟

أجبته وأنا أشير بيدي الى لحيته :

ــ هذه اللحية .

عادت الابتسامة الى شفتيه مرة أخرى ، ثم خر جسده الــى الأرض جالساً .. جلست أمامه بالضبط ، كانت الريح تسف علينا الرمل ..

قــال :

ــ لماذا لا تقول أن لا مجال لحلاقتها .

ــ كيف ؟ سألته ، ثم أردفت :

ــ انك عسكري ، والعسكري يجب أن يهتم بهندامه .

قال وهو يتطلع الى امام :

ــ هذا صحيح ، فيما إذا كان الجيش كأي جيش نظامي .. أما عندنا فالحالة تختلف .

سألته ، وأنا أراقب من خلل الرمل ، الجهة التي أمامي :

ــ وكيف ذلك ؟

قال ، وهو يشير الى الزمزمية :

ــ عندما أشرب قليلاً من الماء ، سأحدثك عـــن ذلـــك . عندهـا تذكرت الزمزمية ، ولون شفتيه ، ويباسها . انـــتزعت الزمزمـــة مـــن مكانها .. رفعت غطاءها المعدني .. ناولتها له .. ملأ فمه من مائـــها .. تمضمض به .. ثم بصقه على رمل الأرض .. شرب جرعة واحدة مـــن ماء الزمزمية .. بعدها ناولني إياها .

ــ شكراً .. قالها مبتسما ، ثم أردف :

ــ أنني عطشان جداً .. وماؤها لا يروي ظمئي ، ولكـــن يجـب أن أكون منصفاً معك .

ــ مـــاذا !

قلتها باندهاش .

أجاب : ــ

ــ يجب أن نحافظ على الماء .. لقد بدأت العاصفة تشتد ، ومن كـل جانب ، ولا نعرف متى وكيف سنصل الى قواتكم .

كانت دهشتي كبيرة لحديثه الواثق معي .. كان حقاً واثقاً من نفســه وهو يتكلم .. إذن ، لقد وقعت في الفخ ، هل أضعت طريق العودة ؟ إنـــه يعرف باننا متجهون الى قواته .. ولكن ، يجب إلا أدعه يحس بذلـــك .. سألت نفسي : ــ ما الحل ؟ هل أظل سائراً في هذا الاتجاه يا إلـــهي مـــا العمل ؟

طلاســـم
تذروها الرياح

وقفت قليلاً .. مددت بصري الى كافة جهات الأرض الأربع المترامية الأطراف التي ملأتها ذرات الرمل فغدت بلون رملي يقبض النفس .

كان واقفاً أمامي ، انتبهت الى موقعنا ، كنا مكشوفين إلا من غطاء رملي سميك .. طلبت منه أن يجلس على الأرض بعد أن قطعنا عدة أمتار بصعوبة ، ونحن ندفع بسيقاننا دفعاً .

كانت الريح قد بدأت من جديد بعملها المعتاد .. وذرات الرمل تتصاعد الى الأعلى ، تسفوها الرياح بوجهينا .. ثبت الخوذة جيداً على رأسي .. وجلست بالقرب منه .، كان منخذلاً ، وكنت وجلاً مما نحن فيه .

امتلأ الجو المحيط بنا بذرات الرمل فضاعت إشعاعات الشمس بين الرمال ، تكسرت عليها ، وتخدشت ، فلم تصل لنا .

لاحت لي عن قرب حفرة صغيرة ، بدت وسط هذا البحر الرملي ، قلت له وأنا أشير إليها :

ــ يجب أن نرتاح قليلاً .

نظر إليّ ، ثم قال :

ــ أنا أسيرك الآن .. وأرجو ألا تفكر بقتلي .

كان في كلامه بعض شك ما زال يساوره .. لكنه زاد من شكي أنا ..

تقدم أمامي نحو الحفـرة .. جلس داخلها .. جلست بعيـداً عنـه قليلاً .. وضعت البندقية بين ساقي .. جعلـت فوهتـها الـى الأعلـى .. واخمصها قد انغرس في الرمل .. كانت الحفرة واسعة جـداً .. ربمـا كانت انفجار قنبلة مدفع .. أو كانت ملجأ ملأته الرمال ، فاسـتحال الـى حفرة كهذه .

قلت له وأنا أريد أن أحدد مكاننـا بالضبط ، وأزيل عن نفسـي مـا فيها من شكوك قد وجدت طريقها إليها :

ـ اين قواتكم ؟

نظر اليّ باستغراب .. نزع عن عينيـه نظارتـه الطبيـة ، مسـح بأطراف أصابعه على زجاجها .. ثم أعادها الى مكانها مرة ثانية :

ـ هناك .

وأشار بيده الى الجهة التي جئنا منها .

ـ وكيف عرفت ؟

سألته وأنا أريد أن أعرف الحقيقة منه كاملة .

ـ لقد جئنا من هذه الجهة ..إذن فهي جهة قواتي .

سألته مرة أخرى كي لا أعطيه فرصة للتفكير والاستدلال بشـكوكي في إضاعة طريق العودة :

ـ هل أنت بخير ؟

قال لي بعد أن ترك أصابعه تنهش في رمل الأرض .

ـ ليس المهم ما أنا عليه ، ولكن المهم ماذا ستصنع بي أنت ؟

اقتربت منه قليلاً لكي يكون حديثنا مسموعاً لكلينا :

ـ وماذا تعتقد أنت ؟ بماذا تفكر ؟

نظر اليّ ، ثم سألني قائلا :

ـ هل أنت مسلم ؟

أجبته :

ـ نعم .. اتشك في ذلك ؟

أجابني بتوسل احسسته من نبرات صوته :

ـ إذا كنت مسلماً حقاً ، فأرجوك ألا تقتلني .

ابتسمت له لابدد ما به من خوف وقلق على حياته :

ـ ومن قال لك بأنني سأقتلك ؟

قال بصوت بدأ يتهدج شيئاً فشيئاً :

ـ أرجوك ، لقد قتلوا أخي ، ووالدي ما زال معتقلاً ، لم يبـق مـن العائلة سواي فقط .. أرجوك ألا تقتلني .

ابتسمت له مرة أخرى .. وضعت كفي على كتفه ، طبطبت عليـها مرات .. نزع نظارته الطبية بأطراف أصابعه ثم أعادها الى مكانها .

فكرت ، أن محاولاته العديدة لتنظيف نظارته لا تجدي نفعاً ما دامـت العاصفـة الرملية قد أشتدت أكثر مما كانت عليـه .. هـل هـي عـادة اعتادها ، ولكنني رغم ذلك لم أطلب منه أن يعطيني تفسيراً لعمله هـذا .. أحنى رأسه الى الأسفل .. أخذت أصابع يده اليسرى ترسم خطوطاً علـى رمل الأرض سرعان ما تمحوها الرياح .

كان الجو مشحوناً بالرمل .. هل هي طلاسم تلك الخطوط التي أخذ يرسمها على الأرض دون جدوى ؟.

فجأت انتبهت الى اكتشاف لم يخطر لي من قبل ، أن أكثر المشعوذين بأسم الإسلام قد جاءوا من أرض فارس ، وكانوا يحملون معهم مثل هذه الطلاسم ، خطوط طويلة وأخرى عرضية .. دوائر ومثلثات .. أرقام وحروف .. رموز وأسماء غريبة لم ينزل بها الله من سلطان .. حروف مقلوبة وأخرى غير واضحة المعالم .. تساءلت ، هل عرف تفكيره مثل هذه الشعوذات ، وهو الطالب الجامعي ؟ هممت بسؤاله حول ذلك ، لولا أن الريح قد أشتدت حدة وقوة ، فلطمت وجوهنا بتل من الرمل .. كانت تدفع بذرات الرمل ، وكأنها تزيح عن نفسها ثقلاً كبيراً .. نظرت الى ساعتي ، كانت عقاربها تشير الى السابعة إلا ربعاً .. لقد قضينا وقتاً طويلاً .

سألته أن كان يريد قليلاً من الماء ، فأجابني بالنفي .. تركته يعاند العاصفة الرملية بأصابعه التي راحت ترسم على الأرض طلاسم لا تصمد ثوان أمام هيجان الريح الرملية .. فكرت ، هل نظل في هذه الحفرة حتى الليل .. أم نتابع سيرنا ؟

لا شيء البتة سوى الرمل المحيط بنا .. وبدأت تحت سياط الرياح اخطط للمرحلة القادمة من رحلتنا التي ستطول ما دامت هذه الريح تعوي دافعة الرمل الى كل الجهات .

صورة البقرة

لم أكن قد تعرفت عليها قبل الحرب .. كنت لا اعترف بما يسمونه الحب .. إذ كانت حياتي هي الدراسة فقط ، الدراسة لا غير ، أما غير ذلك فهو الجلوس في البيت ، وقراءة بعض ما تقع عليه يدي من كتب كان أبي يحتفظ بها في مكتبته الصغيرة .. ونادراً ما كنت أذهب الى النادي الترفيهي لحينا .. إذ كان صوت ((كوكوش)) يسحرني .. أما جسدها فلا علاقة لي به .. كنت أستمع في النادي الى صوتها الذي تبثه سماعة كبيرة في وسط الحديقة .. هكذا وزعت وقتي ، إذ كنت لا أسمح لنفسي ان استمع للأغاني في البيت ، لأن الوقت هناك مخصص للقراءة ..

أما أخي ، فهو لا يعود إلا في الليل .. لا أعرف أين يقضي كل وقته .. اما عندما يسأله والدي عن المكان الذي يذهب إليه ، فإنه يجيبه بهدوء : في الجامع مع بعض الأصدقاء .

وكان والدي ، يعرف ذلك ، لكنه كان يعرف أن أصدقاء أخي ليسوا طلاباً معه في المدرسة الثانوية ، وإنما هم رجال ومن أعمار ومهن مختلفة .

أما هي .. فاطمة ، الفتاة الجميلة الهادئة ، فقد كانت تزورنا بين فترة وأخرى .. إنها جارتنا ، إبنة الاستاذ ــ هكذا كنا نسميه ــ الاستاذ حسن اصفهاني .. لم يكن استاذاً ولا معلماً .. ولكنه كان تاجراً في البازار .. رجلاً يملأ جيوبه بالمال ، يتحدث

بكلمات حروفها (تومانات) .. يرفع أنفه عما يحيط به ، مهما كان ذلك الشيء المحيط به .. إذ أن أنفه لا يستسيغ أية رائحة ، سوى رائحة (التومانات) وفي حينا ، تنعدم تلك الرائحة ، ذلك أن عوائل هذا الحي ليس لديها خزانات لحفظ التومانات ، وربما ، لأن التومانات التي يحصلون عليها ، بأية طريقة ، تأبى البقاء ..

كان والد فاطمة ، الاستاذ حسن اصفهاني ، الذي كلمات حديثه من تومانات ، يرد السلام وكأنه يتخلص من ثقل كبير .. ولم يكن بيته هادئاً .. ولم تكن حياة أبنائه مريحة ، كحياة البازار .. كان همه أن يجمع المال والذهب .. أما هي ، أي فاطمة ، فقد كانت واحدة من بين أربعة أولاد .. أكبرهم طبيب ، وأصغرهم طالب في مرحلة الدراسة الابتدائية .. وهي في مرحلة الدراسة الإعدادية .. وعندما كانت تدخل بيتنا ، وتخرج منه لم أكن أعبأ برائحة عطرها المميز .. وكنت ، عندما تجلس مع أمي ، أمي التي لم يرزقها الله بمولودة .. أحس بان خيوط المودة بينهما متينة وقوية ، حريرية الصنع .. كانت السعادة هي الهالة التي تحيط بهن .. وخاصة أمي ، ربما كان ذلك إحساس إنساني لمن لم تلد بنتاً .. وكنت عندما تدخل علينا ــ أنا وأمي ــ أترك المكان ، وأدخل غرفتي أو أخرج الى حديقة الدار .. أتحاشى الحديث معها ، أتحاشى حتى نظراتها التي كانت تحاصرني كلما زارتنا ، وما أكثر زياراتها لنا ..

كانت عيناها بحراً ، وكنت أخاف الإبحار فيه .. إذ رغم قراءتي لحكاية السندباد البحري أكثر من مرة ، إلا أنني لم أستطع أن أكون مثله وأتحمل مشاق الإبحار في عيني فاطمة .. ولم يكن باستطاعتي ، حتى ، الرد على تحيتها ، برغم إنها تتكلم بكلمات مفرغة من أي (تومان) .. كانت المرأة ــ بالنسبة لي ــ شيطاناً ، شيطان متلبس جسد إمرأة جاء ليغويني .. وكنت أعوذ بالله أكثر من مرة عندما أراها .. ورغم ان أحد اصدقائي طلب مني أن أجعل صورتها في عيني كصورة البقرة... إلا إنني لم آأخذ بنصيحته ..

كنت اتساءل ، هل جاءت لتعذبني هذه البقرة ؟ أم ان الله سبحانه وتعالى قد أرسلها لي ليمتحن إيماني وصبري ؟

كانت هي ــ كما اخبرتني أمي ــ تذكر والدها ــ دائماً ــ بسوء .. لانها ــ كما تقول أمي ــ لم تكن حياتها وحياة اسرتها سعيدة ، كما يظن أبناء المحلة ..

قالت لأمي مرة :

ــ أن المال يا خالة لا يجلب السعادة .. إنه يجلب التعاسة فقط ..

وبعد بكاء طويل ، تابعت قولها :

ــ إن والدي يحب جمع المال أكثر مما يحب عائلته .. حتى شقيقي الطبيب تركنا ليعمل في مدينة أخرى بعد ان رفض والدي ان يفتح له عيادة خاصة .. تزوج هناك واستقر .. ولكن هذا لا يعني إنني أكرهه ..

إنه والدي .. ولا يمكنني أن أكرهه ولكنني أدعـــو الله أن يهديـــه الـــى الطريق الصحيح ..

مرة ، دخلت عليّ أمي .. كنت في الغرفة مستلقياً علـــى الســـرير ، اقرأ شعر الخيام .. سألتني :

ــ هل تعرف استاذ حسن اصفهاني ؟

لم افاجأ بسؤالها .. وفي الوقت نفسه لم أكترث له ، لأننـــي لا أود حتى سماع أسم هذا الشخص .. أعادت عليّ السؤال .. وضعت الكتـــاب على المنضدة ، جلست على حافة السرير ، قلت لها وكأنني أدفـــع عـــن نفسي ثقلاً كبيراً :

ــ لا أريد أن أسمع عنه أي شيء .

قالت بعد أن جلست على الكرسي المقابل للسرير :

ــ لماذا يا ولدي .. إنه جارنا ، وهو أبو فاطمة ؟

كانت كلماتها الأخيرة معطرة بالحنان الذي أحسست به يخـــرج مـــع الحروف التي نطقتها :

ــ مهما يكن الأمر ، وأياً كان ، فأنا لا أود سماع ما يشـــاع عنـــه

نظرت اليّ باستغراب ، ثم قالت بحزن :

ــ انه يا ولدي لم يعد الى الدار منذ يومين .

كان هذا الخبر قد فاجأني ، هزني .. ولأول مرة وجدت نفسي أهتـــم بأمر هذا الاستاذ اصفهاني ..

ــ كيف ؟ سألتها .

قالت ، وهي تنظر الى صورة والدي المعلقة على جدار الغرفة :

ــ لقد بحـــث عنه ابناؤه في كل مكان .. حتى ابنـــه الطبيـــب راح يبحث عنه .. سألوا أصحابه التجار دون جـــدوى .. أعـــوذ بـــالله مـــن الشيطان الرجيم .. ربما ألقوا القبض عليه .

سألتها باستغراب :

ــ مـــن ؟

قالت بصوت خفيض يشبه الهمس :

ــ يقال ان حرس الثورة هم الذين ألقوا القبض عليه .

قلـــت :

ــ ولكـــن ، لمـــاذا ؟

قالـــت :

ــ سمعت والدك يقول ، إن اصفهاني من جماعة الشـــاه .. وإنـــه كثيراً ما كان يقول للناس إن ثورة خميني لن تدوم طويلاً ..

حديثها معي أصبح كالكتاب المفتوح .. ســـألت نفســـي أكـــل هـــذه المعلومـــات التـــي تعرفها والدتي ، لا أعرفها ، كيـــف ، وأنـــا طـــالب الجامعة .. أين كنت من هذه الأخبار ؟

قطعت أفكاري هذه بقولها :

ــ ليس هذا مهم يا ولدي .. ولكن فاطمة .

ـ فاطمـــــة ؟!

لأول مرة ينطق لساني بهـذا الإسم .. فاطمـــة !! هـذه الفتـاة ، الشيطان .. الجمال الشيطاني .. بحور السندباد .. هل حل بها مكـروه ؟ هل أخذ حراس الثورة هذه البقرة ، ألم يجعلوا صورتـــها فـي عيونـهم كصورة البقرة .. هل دخلوا بيتها ليلاً .. سحلوها مـن شـعر رأسـها ، خرجوا بها الى مكان مجهول من أماكنهم التي لا تعد ولا تحصى ؟ هـل اغتصبوا هذه البقرة ؟ أم .. ماذا ؟

سألت والدتي بشفتين مرتعشتين فيما الدم قد تجمد في عروقي :

ـ ماذا بها يا أمي .. هل حل بها مكروه ، هل أخذها الحرس ؟

أحسست إنني قد أصبحت ـ منذ اللحظة هذه ـ أكثر إهتماماً بـها .. لا أعرف كيف ساورني هذا الشعور ، بأنني قد أخطأت عندمـا حـاولت الابتعـاد عنها بالرغم من إنني ـ حقيقة ـ لا أعرف كيف ابتعـد عـن طريق أية بقرة ..

ـ كلا يا ولدي . إنها بخير .. ها هي في بيتنا تبكي .

ـ تبكـــي !

ـ نعم يا ولدي .. تبكي على والدها .

ترددت في أول الأمر .. ها هي في بيتنا .. الشيطان نفسـه بهيئـة امرأة ، أو بقرة في بيتنا .. غواية الرجل المسلم .. وإياي تحـت سـقف واحد .. هل اذهب إليها لاواسيها ؟ أم أترك ذلك لأمي تقوم به ؟

أكان وراء حديث أمي معي شيئا تريده أن يتحقق ؟

اسألة كثيرة جالت في خاطري وتركتـــها دون جـواب .. وعندمـا خرجت أمي من غرفتي وتركتني في حيرة من أمري ، قررت ان أخـــرج الى فاطمة وليكن ما يكون ، ليس هي وحدها الشيطان ربما هي شـيطان صغير ، لان الشـيطان الكبير قد تكفله حرس الثورة وخمينـــي .. فقـط لالقي التحية على تلـك البقرة .. وأقدم لها مواساتي لفقدان والدهـــا .. كلمة واحدة أو كلمتين ، ثم أعود ..

لم تكن لي حيلة في ذلك .. إلا ان السلام على تلك البقرة ، جرنـــي الى الحديث عن أبيها ، وكان هذا أول حديث لي معها صيرها في عينـــي امرأة من لحم ودم .. وكان لقاؤنا الأول .

كان حديثي معها قد سحبنا سوية الى عالم لم أعشه مـــن قبـل .. خيالي وجميل ، انساني أغاني ((كوكوش)) وذكرني بجسدها الراقص .. عشت في موسيقى صوتها ، تجسدت كلمات الخيام أمامي بالضبط عنـــد ارتعاشة رموش عينيها .. أحسست أن خوفي من تلك العيون ليس فـــي محله ، فقد بـدا لي الإبحار في هاتين العينين ـ هكذا اخبرتها بعد أكـثر من جلسة بيننا ـ أهون من إبحار السندباد في كل رحلاته .. أكدت لـها ، ان رحلتـــي في عينيها ستنتهي في ميناء أود أن ترســو عليـه سـفينة حياتي .. وقتهـا ضحكـت .. ليس كما تضحـك (تومانـات) والدهـا المفقود ، بل كما يضحك عطرها ..

لم أرها تضحك هكذا منذ ان عرفت ان والدها قد أخذ كـــل أموالـــه وهرب خارج البلاد .. ضحكت أنا الآخر وكنت أحس بعمق ضحكتها ..

قالت لي : إنك شاعر ، وسألتني :

ــ هل تكتب الشعر ؟

اجبتها وأنا أسبح في بحر قصائد عينيها الشيطانيتين :

ــ غبي ان كتبت بيتاً واحداً ، والقصيدة أمامي .

ابتسمت بحياء ، وقالت :

ــ لا .. أرجو ان تخبرني حقيقة ؟

اجبتها :

ــ هذه الحقيقة كلها يا فاطمة .. أنا أقرأ فقط ، وكل ما قلته أمـــامك هو حديث القلب ..

سألتني وابتسامة صغيرة ما زالت عالقة بين طرفي شفتيها :

ــ والشعر .. هل تحبه ؟

فاجأني السؤال .. قلت :

ــ هـــا .. ؟!

ــ أتحب الشعر ؟

كنت استمع لحديثهما وأنا مفتون بها وبه ..

ــ كمـــا أحبـــك ..

صـورة النـوم

تركته يسير أمامي ، بعد ان هدأت العاصفة قليلاً ..

كان هو يحني ظهره كـي لا يكشف للعدو حركته .. وكنـت أسـير خلفه حاملاً بندقيتي .. محني الظهر مثله .. فيما كانت بعض الأعشـاب الصحراوية تهتز بفعل الريح ، وهي تعلو فوق سطح الأرض ، ناثرة مـا علق بها من ذرات الرمل الناعمة ..

كان النهار قد ملأ ما يحيط بنا من نوره ، حيث بدأت الشمس تنـير الجور المحيط بنا بأشعتها الصفراء التي تشربتها ذرات الرمل ، فاسـتحال لون الجو اصفر رملياً متشرباً بالحمرة .

لم أشأ أن أكبل يديه .. يكفيه ما هو فيه من تعب وإرهاق وظلم ..

كم أشفقت عليه .. لم أكن أعرف بأن جنود العدو بهذه الحالة التـي تدعو الى الرثاء ..

صحيح إنني شاهدت مئات الأسرى والقتلى ، ولكن ــ أكـدت مـع نفسي ــ ان أمسك جندياً إيرانياً وأأسره ، شيء بدا لي أول وهلـة مـن المستحيلات .. لا لأنني لا أستطيع فعل ذلك ــ كلا .. ولكن المهمة التـي خرجنا من أجلها لا تتيح لي ولرفاقي الآخرين الفرصة لأسر أي شـخص كان .. ذلك لأن من مقومات سلامة وأمن هذه المهمـة ــ كمـا أخبرنـا العريـف محمود ــ هو السرية والكتمان والحذر .. وعدم التمـاس مـع افراد دوريـات العدو .. ولهذا لم اسأل نفسي عن الكيفية التي اسـتطعت بها ان أوقع هذا الجندي في الأسر ..

ها هو الآن يتقدم أمامي ، أسير ، محني الظهر ، تمتزج في نفسه مشاعر الخوف والجبن ..

كنت وقتها أحس بانني أدفع أمامي كل أفراد الجيش الإيراني المنكسر ، الى الأسر ..

كنا أربعة .. العريف محمود ، آمر الدورية ، والجندي الأول كاظم ، والجندي الاحتياط زاهد .. وأنا ..

أربعة ، ضمنا الليل بظلمته الحالكة ، وبقمره الذي حمدنا الله على احتجابه خلف الغيوم تلك الليلة ..

الظلام صديقنا ساعة ان خرجنا .. وكانت السماء ملبدة بغيوم سود عندما رفع إليها العريف محمود بصره ، وقال :

ــ هذا حسن .. ستفيدنا هذه الظلمة .. حتماً سيظل القمر مختبئاً خلف تلك الغيوم الكثيفة .

أنزل بصره الى حيث نقف ، وتابع قوله :

ــ واجبنا يحتم علينا ان نكون حذرين .. وان نكون متستترين والغيوم ستقوم بدور كبير في ذلك .

ضحك الجندي الأول كاظم ، وكان وكيلاً لآمر الدورية .. حيث خاطبة العريف محمود بلهجته القروية المعروفة قائلاً :

ــ أعتقد انك لأول مرة تحمد الله على عدم ظهور القمر .. أليس كذلك ؟

سأله العريف محمود باستغراب :

ــ لماذا ؟!

لكزني الجندي زاهد في خاصرتي بعد ان اقترب مني وهمس قائلاً :

ــ سيبدأ الجدال بينهما ..

اجبته وأنا أكتم ضحكة ، كادت تفلت من بين شفتي :

ــ لا أعتقد ذلك .

ثم خاطبت العريف محمود قائلاً :

ــ هل نبدأ عريف محمود .. أم إنكم ستبدأون ؟

لم أعرف إن كان العريف محمود قد فهم ما أرمي إليه في كلامي أم لا .. إذ إنه في اللحظة نفسها وجه الى كاظم نظرة حملها بعض ما في نفسه من لوم وعتاب ، وخاطبه قائلاً :

ــ كفى .. سنبدأ رحلة الواجب .

كانت الساعة تشير الى الواحدة من صباح هذا اليوم ، حيث بدأنا رحلة الواجب كما يسميها العريف محمود ، بعد ان تسلم التعليمات من آمر سريتنا ..

جلسنا لمدة خمس دقائق ، شرح لنا العريف محمود المهمة التي كلفنا بها .. ثم أمرنا ان نرتاح ساعة واحدة ..

هكذا بدأ العريف محمود أكثر صرامة معنا في تلك اللحظة :

ـ أأمركم بالذهاب الى افرشتكم .. على الجميع ان يكونوا أكثر استعداداً في الساعة الواحدة .. يجب ان تأخذوا قسطاً من الراحة .

نظر إلينا ، وبعد ان تأكد اننا جميعاً مصغون له ، تابع قوله :

ـ استلقوا على أفرشتكم ، ليس المهم ان تناموا ، بل المهم ان ترتاحوا قليلاً ..

ثم وبلهجة عسكرية آمرة لم نعهدها فيه من قبل ، صاح :

ـ مفرزة ، انصراف .

عندما انصرفنا ، كانت هناك أربعة وجوه تضحك .. وكانت ضحكاتنا قد دوت داخل الملجأ الذي كنا نجلس فيه .. ضحكنا من هذا التصرف المفاجيء الذي قام به العريف محمود .. وقد شاركنا هو نفسه ضحكنا .. ثم سكت فجأة ، وأمرنا بالخروج من الملجأ والذهاب الى مواضعنا بعد ان تأكد للمرة الثانية من مكان كل واحد منا ..

قال :

ـ يجب أن أعرف أماكن نومكم .

ثم ضحك ، وتابع قوله :

ـ أقصد مواضعكم او ملاجئكم ، كي لا اتيه بين المواضع عندما آتي لايقاظكم .

عندها خاطبه الجندي الأول كاظم بحماس :

ـ سنكون قبل الساعة الواحدة عندك إن شاء الله .

اومأت برأسي موافقاً ، أما زاهد ، الشاب الذي يحب النوم كما يحب ((سوسن)) فقد ظل ساكتاً .. لم يتفوه بكلمة واحدة ..

كان العريف محمود قد انتبه الى زاهد .. وكان زاهد ينقل نظراته بيننا نحن الثلاثة .. عرفنا إنه وقع في حيرة من أمره .. عندها خاطبه العريف محمود قائلاً :

ـ ها زاهد .. هل تريد أن تقول شيئاً ؟

نظر زاهد إلينا ـ أنا وكاظم ـ وكأنه يستنجد بنا .. كنا نعرف ما المّ به ، وكانت نظراته تحمل بعضاً من إشارات التوسل .. كان يتوسل إلينا أن نساعده .. أن نشرح للعريف محمود مشكلته مع النوم .. لكن العريف محمود كان يعرف بذلك ، لقد سألني قبل أن يرسل إليه عن أحواله ، وأعتقد إنه قد سأل أحدهم عني .. كان يريد أن يعرف كل شيء عن أفراد زمرته الذين سينفذ الواجب معهم ..

ضحك العريف محمود ، وخاطب الجندي زاهد قائلاً :

ـ لا عليك ، إذهب الى مكانك ، ونم هانئاً قرير العين .. سأوقظك قبل الساعة الواحدة . عندها ضحكنا أنا وكاظم ..

كان زاهد حريصاً على الاشتراك في الواجب ، ولكنه كان ـ أيضاً ـ حريصاً على أن ينام .. ان النوم بالنسبة له لذة لا يمكن الاستغناء عنها ، هكذا كان يقول .. إنه لذة ، حيث لا يكون للنوم بالنسبة له فائدة ، ضرورة نفسية ، راحة جسدية .. يجب ان ينالها

جسم الإنسان ، بل هـو لـذة ، وعلى الإنسان ان يلتذ بـها كما هـي الحلوى ، وهكذا اطلقنا عليه لقب فيلسوف النوم ..

كنت قد سألته مرة ، عندما عرفت إنه أحد أبرز أثنين يحبون النـوم في سريتنا ، أحدهما كـان النائب العريف كريم ، الشاب البدين ، حيـث يملأ فراشه بلحم جسـمه المترهل وبشخيره العالي ، والثـاني زاهـد .. زاهد الشاب الممتليء حيوية ونشاط ، والذي لا يزيد وزنه عـن سـتين كيلوغراماً على خلاف وزن زميله . كنت قد سألته عما إذا كـانت هنـاك علاقة بين لذة النوم التي يستشعرها ــ وكثيراً ما كان يتفلسـف بـها ــ وبين حبه لـ ((سوسن)) .. وقتها نظر إليّ باندهاش ، فتح فمه وكأنـه يريد ان يصـرخ بي ، إلا إنه أطبقه بسرعة ، نظر الى من حولـه ، لـم يكن هناك شيء ما .. كنت أنا وهو فقط داخل الملجأ .. عندهـا بـادرني قائلاً :

ــ أتعرف أن سؤالك هذا ادهشني .. كان حقيقة مدهشاً وذكياً ..

سألته على الفور :

ــ لمـــاذا ؟

أجابني ، وكأنه يتم حديثه :

ــ لم يسـألني أحـد من قبل مثل هذا السـؤال .. ولكنني سـأجيبك يا صديقي ..

سـألته :

ــ أتكون صادقاً معي ؟

فقال ، وهو ينظر إليّ بإمعان :

ــ نعم .. لأن حبي لها هو الصدق نفسه ..

سكت وكأنه يريد أن يرى مبلغ تأثير كلامه في ملامح وجهي ..

ثم تابع حديثه :

ــ ان حبي لسوسن هو اللذة نفسها .. بل هو لذة اللـذات .. هكـذا أعد الحب يا صديقي الذي يربطني بها .. أما النوم فهو ــ يا صديقـي ــ بداية لمثل هذه اللـذة .. حيـث في النوم تبدأ لذتـي الكبـرى .. يـا صديقي ..

كانت (يا صديقي) هي اللازمة التي كثيراً ما كان يرددهـا فـي كلامه .. وهو يحشرها حشراً بين كلماته وكأنه يريد أن يؤكـد لسـامعه صدق ما يقول ..

ولكي أبعده عن التفلسف ، لما أعرفه عنه سابقاً في هذا الموضـوع قلت له :

ــ عدنا مرة ثانية للتفلسف .

ابتسم ، ثم قال :

ــ النوم يا صديقي ، هو عالم الحب بالنسبة لي فـي هـذه الأرض المنقطعة عن عالم الناس ، عالم النساء الجميلات ، وعـالم سوسـن ..

النوم يا صديقي هو العالم الوحيد الذي يجعلني أكثر اقتراباً من سوسن ، هو العالم الذي يجعلني أواصل حبي لها .

عندها سألته مستفزاً :

ـ هل يعني ان حبك من طرف واحد ؟

كنت انتظر منه رد فعل ما لسؤالي الاستفزازي هذا ، إلا إنه لم ينبس بكلمة .. فقط نظر إليّ ، ثم نهض من مكانه .. إتجه الى حيث حقيبة ملابسه ، فتحها ، أدخل يده فيها ، أخذ يجوس في أحشائها ، ثم أخرج مضروفاً صغيراً .. فتحه وسحب منه صورة فوتوغرافية صغيرة ، اقترب مني ، وضع أمام عيني الصورة تلك وصرخ غاضباً :

إقرأ ..

كانت صرخته قد دفعت بأحاسيسي الى ان تنقلب مرة واحدة .. أحسست بانني قد أثرته حقاً .. قلت له وأنا أداري بعض خجل ارتسم على صفحة وجهي :

ـ أرجو المعذرة .. لم أشأ استفزازك .. كان سؤالاً عادياً ليس إلا .

لقد كذبت عليه لاداري خجلي ..

كانت الصورة لفتاة جميلة حقاً .. قرأت السطور التي كتبت على ظهرها .. كلمات إهداء تفيض حباً وحزناً في آن واحد ..

عندها قلت له صادقاً :

ـ أكرر أسفي ..

قال وهو يعيد الصورة الى مكانها في حقيبته :

ـ لا داعي للأسف يا صديقي .. أرجو أن تكون قد صدّقت ما بي من حب لها .

سألته بجدية :

ـ ولكن ، لماذا كل هذا الحب للنوم ؟

ابتسم .. أغلق قفل الحقيبة التي أخفى داخلها الصورة الصغيرة لحبيبته ، وقال :

ـ سأبوح لك يا صديقي بالسر .. وأرجو ألا يدهشك ذلك .

إنني يا صديقي أسرع في كل فرصة تسنح لي الى الفراش كي أغمض عيني قليلاً لأفوز برؤيتها ..

سألته بإندهاش وحيرة من قوله ذاك :

ـ وهل تأتيك في المنام دائماً ؟

نظر إليّ ، وكأنه عرف سبب حيرتي ودهشتي ، ثم قال بعد أن خرجت من بين شفتيه آهة طويلة :

ـ كلا يا صديقي .. ولهذا تجدني كثير النوم ..

سألته بجدية :

ـ لماذا ؟!

نظر الى ساعة يده .. نهض ، وخطا بعض خطوات الى حيث باب الملجأ ، بعدها خاطبني وهو ينظر الى خارج الملجأ :

ـ سأجيبك في وقت آخر .. المهم في هذه اللحظة الذهـــاب الـــى مكان توزيع الأرزاق ، يا صديقي .

لم أجبه بشيء .. ربما أراد ان يقطع الحديث الـــذي دار بيننـــا ، أو وجد نفسه وقد باح بكل سرها ..

قمت .. خرجت من الملجأ فيما عاد هو الى داخله ..

صـورة القلـق

لقد تركتها هناك .. قطعت إجازتي وعدت الى الجبهـــة .. كـــانت أعدت لي حقيبتي الصغيرة ، وهي ببدلة زفافها .. وكان وجهـــها يزهـــو بالفرحـــة .. فيمـــا كنـــت أحس بـــاختلاج نفســـها .. وضربـــات قلبـــها المتزايدة .. وكان ((مكياج)) وجهها يخفي تحته الصفرة التي صبغـــت وجهها بعد أن سمعت بقراري .. وقتها ، سألتني :

ــ هـــل تعـــود ؟

أجبتها ، محاولاً أن اهدىء روعها :

ــ حتماً ، وعن قريب .. وسنعيد أيام فرحنا ..

قالت ، وهي تحاول أن تخفـــي بعض قطرات الدمع التي تـــــلألأت بين كحل رموش عينيها :

ــ ولكنك في إجازة زواج ، ابق يوماً واحداً فقط .

قلت ، وأنا أخلع دشداشتي البيضاء :

ــ لقد بدأ الهجوم .. ولا أستطيع أن أقبع هكذا في البيت ورفـــاقي هناك يقاتلون الأعداء .. لقد أصبح كل شيء هناك جزءاً مـــن كيـــاني .. وتعودت العيش داخل الملاجىء ، تعودت العواصف والأمطـــار ، الـــبرد والحر ، الواجب الذي أكلف به بالنسبة لي هو اسعد لحظات عمري .

ودون أن أرفع عيني عن صفاء وجهها ، قلت :

ــ أتعرفيـــــن ؟

وقبـــل ان تقول شيئاً ، تابعت قولي وكأني أجيـــب عـــن ســـؤالي بنفسي :

ـ كنا نتسابق ، أنا ورفاقي ، في تنفيذ أي واجب نكلف به .. المهم أن لا نكون مشلولين ، قابعين في ملاجئنا كالأرانب المذعورة ، وهي تخرج رؤوسها بين لحظة وأخرى خوفاً من عدو يتربص بها .. وكنا دائماً نحب أن نتقدم الى أمام .. أن نطارد العدو .. أن نكسر أي هجوم يقوم به .. كنا في فرح دائم . كانت صامتة .. تنظر إليّ بعينين أحاطهما شريط من الكحل ، وكان وجهها يتألق بنور لم أنتبه له قبل الآن .. هل هي منزعجة من قطع إجازتي في أول يوم عرسنا ، ربما ..

كان حديثي معها ، وأنا أجلس بالقرب منها ، قد هدأ قليلاً من التوتر الذي تعرش في أعصابها .. وأزال بعضاً من خوفها وهي في يوم عرسها الأول .. وكنت أحدثها عن الجبهة وعن رفاقي في السواتر والملاجىء .. فيما كانت تبحث بعينيها في وجهي عن شيء لم أعرفه .. هل تتأملني كي لا تنسى ملامح وجهي بعد أن أتركها وأعود الى وحدتي في وقت الهجوم ؟ أم أنها ..

ـ هل تذكرني هناك ؟

فاجأني سؤالها .. لأنني كنت أريد أن أسألها السؤال نفسه .. وقبل أن أجيبها ، قبلتها في خدها الذي عاد الدم إليه .. فيما كانت هناك ابتسامة انفرشت على شفتيها المرسومتين بإتقان بقلم الحمرة ، قلت لها وأنا أضع كفها بين كفيّ :

ـ ستكونين في القلب والعينين .. و ..

ضحكت .. ارتفع صوت ضحكتها .. ملأ الغرفة .. ثم نهضت . كانت ضحكتها ما زالت تشع بين جدران الغرفة .. اتجهت الى ((الكنتور)) أخرجت منه حقيبتي الصغيرة ، ودون أن تقول شيئاً أخذت تجمع ملابسي التي أحتاجها .. ثم وضعت صورة صغيرة لها في الجيب الصغير للحقيبة ..

كنت واقفاً خلفها .. سألتها :

ـ لدي صورة لك في محفظتي .

رفعت رأسها ، وبصوت كالغنج ، قالت :

ـ أعرف ذلك .

أخذت الحقيبة منها ، وقفت أمامها ، فيما اتجهت هي ببدلتها البيضاء وابتسامتها الشفافة الى السرير .. جلست على حافته .. ملكة متوجة على عرشها ، كانت .

لقد ضمنا هذا السرير سوية قبل لحظات .. كانت هي المرة الأولى التي استطاع أحدنا أن يثبت للآخر مقدار حبه .. حيث كانت خطبتي لها في الاجازة السابقة .. لم تدم فترة الخطوبة أكثر من عشرين يوم ، هكذا رغبت والدتي ، عندما رأتها أول مرة .. أحبتها كما اخبرتني ، كما تحب الأم ابنتها ، وكانت محقة في ذلك ..

قلت لها بعد أن رأيتها : ـ ان من يرى هذا الجمال وهذه الرقة ، فإنه لا يملك إزاءه سوى الحب .. وقد أحببتها أنا بدوري .

ـ هـا .. مـاذا ؟

أخرجني سؤالها مما كنت غارقاً فيه من حلم جميل ، لولا سـؤالها هذا ، لنسيت كل شيء حولي .

ابتسمت لها ، اقتربـت منهـا ، كانـت الحقيبـة مرميـة قـرب السرير ، وقد التصق جسمي بجسمها .. طوقتها بذراعي .. كـان فمـي أسرع من ذراعي .. قبلتها .. أخفت هي رأسها في صـدري .. سـمعت نشيج بكائها ، بكت حقاً .. ولأول مرة أسـمع صوت بكائها .. كان الدمع يجرف معه بعض كحل عينيها .. سألتها :

ـ أتبكيـن ؟

ـ إنه بكاء الفرح يا حبيبي .

سألتها باندهاش :

ـ وهل للفرح دموع ؟

قالت وهي تمسح دموعها :

ـ أرجو أن تذهب وتعود سالماً ، يجب أن تعود سالماً .

قلت لها ، وأنا أحمل حقيبتي بيدي :

ـ سأعود إليك يا حبيبتي حتماً .

قالت ، بعد أن فتحت لي باب الغرفة :

ـ اذهب إذن .. واذكرني .

قبل ان أخرج من باب الغرفة ، رأيتها تنزع عـن جيدهـا سلسـلة ذهبية يتدلى منها نقش ذهبي لآية من القـرآن الكريم .. والبستني إيـاه

بعد أن قبلتـه .. مـددت بصـري في عينيهـا ، كانت أكثر القـاً ممـا رأيتها أول مرة .. تمنيت لحظتهـا ان أبحر في عمقهما .. كان بصـري يمتد ويمتد الى داخلهما ..

ـ ها .. ماذا رأيت ؟

كان سؤاله قد أخرجني من لجة أعماق عينيها :

ـ مـاذا ؟!

ـ أراك تسدد نظرك الى الأمام ، هل رأيت شيئاً ما ؟

كان الرمل يحيط بنا من كل الجهات .. والعاصفـة رغـم هدوئـها النسبي إلا أنها ما زالت تعوي وتثير فيَ إحساساً بالضيق .

قلت له دون أن أدع له مجالاً لتبين القلق الذي راح يتعـرش فـي نفسي بعد أن تذكرت زوجتي وليلة العرس :

ـ كـلا .. لا شـيء ..

ثم أردفت محاولاً أن أجعل كلماتي واثقة وهي تخرج من فمي :

ـ اسمع ، سنواصل سيرنا ، وحتماً سنصل .

قال لي وهو يقف أمامي بالضبط ، بعد أن خلع نظارته الطبيـة وراح يمسح زجاجها البلوري بذيل قميصه العسكري :

ـ لقد تعبت ، لو نستريح قليلاً .

سحبته من يده بهدوء .. كنت أنا تعباً ، وعطشاناً .. لكنني لا أريـد أن أجعلـه يشعر بما في جسدي من تعب .. كنت أدفع ساقي دفعـاً فـي رمال هذه الأرض الجرداء .

ـ سنتابع سيرنا .. سنصل حتماً ، وهناك سترتاح كثيراً .. ســـتنام براحة وهدوء ..

لم يقل شيئاً ، بل ترك ذراعه تحت رحمة يدي وهي ممسكة بـــها ، وبدأ يسير بجانبي ونحن نلج جداراً سميكاً من ذرات الرمل .

حروف عبر ـ آنية

لم أشأ ان أسأله عن اسمه ، فهذا ليس من واجبي ، في الأقل في الوقت الحاضر ، يجب ألا يأخذني الحديث معه أكثر مما يجب .. لكنه أخبرني ، وهو يسير بجنبي ، وكأن صوته يأتيني من بين ذرات الرمل التي تحيط بنا ، بصعوبة بالغة :

قال :

ـ اسمي علي ..

قلت له :

ـ عاشت الأسماء ..

كان الكلام صعباً .. وذرات الرمل ، تتحين الفرص لتملأ أفواهنا .. لهذا حاولت أن أتأخر عنه قليلاً .. تركته يسير أمامي ، كانت الشمس وقتها عبارة عن نصف دائرة تلتهب في جوفها نار حامية .. حيث ما زالت العاصفة تحمل أطناناً من الرمل الناعم وتذروه في كل مكان واتجاه .

نظرت الى كل الجهات .. حاولت أن أتبين شيئاً ما عن قرب .. كانت الأرض التي تسير عليها أقدامنا ببساطيلها الجلدية السوداء هي نفسها الأرض التي قطعتها مع رفاقي ليلة البارحة .. حيث بدأت مسيرة الواجب .. إنها أرض رملية مفتوحة لكل الجهات .

كان ثمة تل غير واضح المعالم يتراءى اليَّ عن بعد وهو يمتد على بضعة أمتار من هذه الأرض ، ويرتفع بأكثر من متر .. بدا كشبح جاثم على الأرض وسط فضاء محمر ، مليء بالرمل .. وبالكاد استطعت أن أميزه من بين رمال العاصفة .. ولون مغيب الشمس .

كان حتماً سداً .. صنع بأيد عسكرية ، لأن المنطقة التي تحيط بـــه كانت مليئة ببعض الصناديق الخشبية المكسورة ، وبعـــض المخلفـات ، عندها صحت بأسيري : ــ وجدته .. وجدته ..

قفزت الى الأعلى عدة مرات وأنا فرح بذلك ، وما زلت أصـوخ : ــ وجدته .. وجدته .. عندها أزت في الجو المحيط بنا اطلاقة بندقية .

صاح بي : انتبه ..

ثم رمى بجسمه الى الأرض ، تبعته أنا الآخر ، وكســـباح مـاهر يقفز في حوض سباحة ، رميت بجسدي على الأرض .. كنت بعيداً عنه ، وكانت المسافة التي تفصلني عنه تقاس بالامتار .. زحفت نحوه ، اقتربت منه ، سمعته يقول :

ــ كدت تموت .

قلت له وأنا أمسح شفتي مما علق بهما من رمل يظهر كفي :

ــ لم يكن ثمة شيء يحمينا في هذه الأرض الجرداء ..

ونحن نمد أجسامنا على الرمل ، تابعت قولي :

ــ أنظر الى ذلك التل الصغير ، ألا تـــراه .. سـيحمينا .. سـوف نختبىء خلفه ..

أدار جسمه كله الى جهة الخلف ، نظر من وراء زجاجتين تسفعهما ذرات الرمل ، ثم قال :

ــ سنعود إليه زحفاً .

أومأت له برأسي ، وزحفنا معاً نحو التل ، وكأننا نعوم في بحر مـن الرمل ..

كانت المسافة التي تفصل بيننا قصيرة .. وعندمـــا انتـهينا مـن الزحـف ، جعلنا من التل ساتراً لنا ، ولكنني ، قبل ان أخبره بما فكـرت

فيـه ، تحركت زاحفاً لأدور حول التل ، قلت : ــ يجب أن أبحـث عـن شـيء ما ، ان أجلب خشبة من خشب الصناديق المحطمة التـي علـى جانبه الآخر ..

سمعته يصيح بي : ــ الى أين ؟ لم أجبه .

تابعت زحفي .. استدرت حـول حافة التـل الجنوبيـة ، أو هكـذا خمنتها ، وأنا أسحب جسمي على الرمل .. مددت يدي الـى أول خشـبة كانت تقبع أمامي ، كان نصفها غاطساً بين ذرات الرمل الناعمة .

كانت عليها بعض الكتابات ، لم انتبه إليها جيداً ، بل عـدت زاحفـاً الى حيث ((علي)) .

عندما وصلت بالقرب منه ، استويت جالساً ، كـان التـل الرملـي الصغير قد أصبح خلفنا ، يحمي ظهورنا ..

وضعت الخشبة أمامي ، كانت كتابتها حروفاً لم تكـن بالعربيـة أو الانكليزية ، أصابتني الدهشة وقتها ، فأعطيته إياها :

ــ أنظر ..

ــ ماذا بها ؟

سألني دون اكتراث ، فقلت له مؤكداً :

ــ أنظر ، أنظر الى ما كتب عليها .

أخذ الخشبة مني ، نزع نظارته الطبية ، مسحها بأصابع كفه ، ثـم أعادها الى مكانها فوق انفه .. وبدأ يتفحص الكتابة ..

ــ يبدو إنها حروف عبرية ..

صحت به :

ــ ممتاز .. هي كذلك .. لقد نجونا ..

سألني مستفسراً :

ـ مـــاذا ؟!

أجبته وأنا أدس طرف الخشبة في أديم رمل الأرض :

ـ قلت لك لقد نجونا ..

كنت أعرف ان ما قلته يحتاج الى تفسير ما .. ذلك لانه لم يفهم ما قصدت إليه .. ذلك ، لأنه ـ حتماً ـ قد أعتاد رؤية مثل هذه الحروف في وحدته العسكرية .. أما كيف تكون النجاة بسبب هذه الحروف العبرية ، فهذا كثير عليه ..

قلت له ، بعد أن اقتربت منه :

ـ أتعرف إن هذا التل الصغير هو من صنع جماعتكم .. والصناديق المحطمة التي خلفه هي من مخلفات قواتكم .. أي إن جماعتكم الذين تركوا هذه الصناديق بعد ان انتهت ذخيرتهم التي كانت مخزنة في هذه الصناديق ، هم في الجهة الثانية من التل .. جهة الصناديق المخزنة ، أما هذه الجهة (وامتدت يدي الى أمام أنظارنا) فهي الجهة التي فيها قواتنا .. أي الجيش العراقي .. أليس كذلك ..

وضاع صوتي في صوت قنبلة انفجرت على بعد خمسين متراً خلف التل الصغير الذي كنا نحتمي به .. ارتفعت أكوام الرمل الى الأعلى وشكّلت سحابة كثيفة فوق رؤوسنا ، ثم بسرعة انهارت الى الأرض ..

اقترب علي مني وهمس في إذني قائلاً :

ـ هل سنصل بسلام ؟

أجبته :

ـ نعم .. سنتابع سيرنا ، سيساعدنا الظلام كثيراً . سننتظر حتى يحل الظلام ، وتهدأ العاصفة .

البحر .. العدو

كان التل هو ملجأنا الوحيد ، يحمي ظـــهورنا .. ومـــا زال الظـــلام يحتوينا بسواده .. والعاصفة بدأت تهدأ قليلاً قليلاً ..

ــ ها .. ماذا بك ؟

ســـألته بعـــد ان تأكدت من إنه لم يسمع من حديثي كلمـــة واحـــدة فكان سؤالي مفاجـــأة له .. ربما كان هو يسرح بخياله الى حيث أمـــه ، أو حبيبته فاطمة .

ــ ها .. لا .. لا شيء .. لا شيء ..

كـــان فـــي جوابه بعض الارتباك . كان حقاً غير منتبه لمـــا كنـــت أقوله .. سألته باستغراب :

ــ كيف .. هل سمعت ما قلته لك ؟

أجابنـــي :

ــ مـــاذا ؟

قلت له وأنا أرى اختلاجة عينيـــه خلـــف زجـــاج نظارتـــه الطبيـــة وقطرات من الدمع تسيل على خديه .. هل هي دموع الفراق ، أم دمـــوع الفرح بالنجاة ..

ــ هل عدت للبكاء مرة ثانية ؟

قال بلهجة توسل :

ــ آسف .. افعل ما تراه مناسباً .

ــ وحياتك ؛ سألته . .

ـ حياتي ؟!.. إنها الآن بين يديك ..

كانت بعض قطرات من الدمع قد وجـدت طريقـها الـى خديـه .. وأنسلت بين شعيرات لحيته الرملية .. مسحها بطـرف اصبعـه دون ان يرفع عن عينيه النظارة الطبية كما كان يفعل سابقاً .

سألت نفسي وأنا أنظر إليه ، ترى هل وجد برفع النظارة ما يفضـح بكـاءه ، لهـذا ترك تلك العادة ، أم ان رفع النظارة أصبح بالنسبة لـه عمل لا جدوى منه ؟

كان يجول بعينيه اللامعتين في الجو المحيط بنا ..

بادرته قائلاً :

ـ هدأت العاصفة ..

وبنبرة آمرة ، قلت له وأنا أربت على كتفه :

ـ هيا أنهض .. لنواصل السير ..

نظر اليّ دون ان يتفوه بكلمة .. عندها أحسست بالشفقة عليـه .. إنه مغلوب على أمره ، لقد أجبر على فعل ما لا يستطيع ..

خلع حذاءه ، نظفه مما دخل فيه من الرمل .. كـانت جوربتـه قـد اتسخت ، وملأتها الثقوب .. وقد بانت أصابع قدميـه مـن خلالـهما .. طقطـق أصابـع قدميه .. ثم أعادهما الى داخل الحذاء .. شد شـريطه بقوة ، ثم نظر الى الامام ..

كـان يجلس أمامي بالضبط ، وجهه الى حيث يجب أن نسير ، أمـا أنا فقد كنت أمد بصري فوق رمال التل الى الجهة التي اتينا منها .

كنت قد اخترت هذه الجلسة ، بعد ان تأكدت جيداً من خلال حـروف الخشبة الى جهة العدو وجهة قواتنا .

إن جميع الجهات بالنسبة لي في هذه اللحظة تنبـيء عـن خطـر مفاجـيء ، لا أمان في هذه اللحظات ـ حدثت نفسي ـ من أيـة جهـة كانت ، ما دمت قد أضعت طريق العودة وسط هذا البحر الرملي ..

قبل ان ابدأ وأسيري مسيرتنا ، اجتاحني إحسـاس بالحاجـة الـى التدخين .. ان املأ فمي اليابس بالدخان .. استنشقه .. اسـحبه سـحباً عميقاً الـى داخـل رئتـي ثـم أخرجه من فتحتي أنفـي التـي امتلأتـا بالرمل الناعم ، فأصبح التنفس صعباً كأنني أغوص في مياه عميقـة .. ولكنني حمدت الله على ان علبة السكائر قد تركتها هناك ..

لقد نبهنا العريف محمود الى أن نترك كل ما يدل على شـخصيتنا ، وكذلك علب السكائر ..

ـ إن الواجب يحتم علينا ان نمتنع عن التدخين ، ومـن لا يصـبر على تركه فله الحق ان يبقى هنا .. في الملجأ .

هكذا طلب منا العريف محمود ، بعدها ، تابع حديثه قائلاً :

ـ أمامكم وقت طويل قبل ساعة الصفر ، وعليكـم ان تدخنـوا مـا تشاءوا .. املأوا دماءكم بهذا السم القاتل .. وأحذركم للمرة الأخـيرة ، ممنوع التدخين أثناء الواجب .. لا تدعوني أفتش جيوبكم .. مفهوم .

صحنا بصوت واحد :

ـ مفهوم عريفي .

عندها نظرنا الى بعضنا ، لقد بدأ الجد .. ولا أعرف كيف سمع الجندي زاهد كلماتي تلك .. عندها قال للعريف محمود :

ـ لقد بدأ الجد .. عريفي .

نظر العريف محمود الى زاهد ، وقال :

ـ لماذا لا تقول لقد انتهى وقت الهزل ؟

ثم رمانا بنظراته القلقة وقال :

ـ نعم ، لقد بدأ الجد .. وهل نحن نهزل ، هل جئنا للهزل والضحك ؟

لم نجب بأية كلمة .. وسكت زاهد بعد أن سمع ما قاله العريف ، وما طرأ على لهجته من تغير .

انتبهت الى أسيري ، كان ما زال جالساً أمامي ، ينظر إليّ كمن يريد أن يقول شيئاً :

سألته :

ـ هل عندك ما تريد قوله ؟

أجابني بلهجة قاطعة :

ـ كلا .

ـ إذن هيا بنا لنواصل السير .

قال لي :

ـ سنسير في هذا الاتجاه . وأشار بيده الى حيث خمنت .

أجبته سريعاً لكي لا أعطيه فرصة التخمين أو الحدس بعدم معرفتي اتجاه قواتنا بصورة دقيقة .

ـ بالطبع .. سنصل حتماً .. إنها مسيرة قصيرة ، والعاصفة على وشك الانتهاء .. والظلام سيفرش غطاءه الداكن علينا .. والله حامينا ..

كان لون الفضاء المحيط بنا قد أصبح بلون النار ، أحمر .. عندها تذكرت لون شفتي زوجتي ليلة عرسنا ..

كانت زوجتي قد رسمت على شفتيها لون الشفق هذا ، والذي كثيراً ما كنت أرغب أن أراه على شفتي أية فتاة أراها في الشارع ، أو في باص نقل الركاب ..

كنت مبهوراً بهذا اللون .. وهو يفترش الشفاه .. كان لون الشفق قد سحبني الى ان أتذكر لون شفتي زوجتي ، فانطلقت من بين شفتي ضحكة سرعان ما كتمتها عندما التفت اليّ أسيري ، عندها بادرته بالسؤال قائلاً :

ـ لماذا لم تحدثني بالعربية عندما أمسكت بك أول مرة ؟

كنا بدأنا الزحف باتجاه قواتنا .. وكانت البندقية ممتدة الى جانبي الأيسر ، فيما كان أسيري علي يزحف على يميني ..

توقف عن الزحف .. كان الفضاء المحيط بنا ما زال يحمل بعضاً من ذرات الغبار ، وبدأ الظلام يأكل من لون الشفق والرؤية عن بعد أصبحت ضعيفة .. وقبل أن أسمع إجابته بادرته بالقول :

ـ سنتحرك ببطء لكي لا نجعل أحداً ينتبه لنا .

أومأ لي برأسه .

سألته :

ـ لم تجب على سؤالي ؟

رأيته يحرك أصابع يده على الرمل ، كنت موقناً بأنه يفكر بشيء ما .. هل كان يفكر بالاجابة على سؤالي ، أم إنه كان يفكر بمصيره ومصير عائلته ؟

ـ هل تريدنا أن نتعارف ؟

دهشت الى هذا التحول الذي أصابه ، لم يعد خائفاً كما كان .. لقد اطمأن لي كثيراً .. ولكن ـ حدثت نفسي ـ يجب أن أكون منتبهاً منه وإليه .. يجب ان أراقبه جيداً .. ربما كانت لعبة يريد أن يلعبها معي .. لحظتها تذكرت ، إنني لم افتشه عندما أسرته .. كان بدون سلاح ، اقتربت منه ، وبدأت افتش ملابسه بعد أن جلست ، وتركته منبطحاً على الرمل .

لم ينبس بكلمة ، ولم يفعل شيئاً ..

ـ هل وجدت شيئاً ، سألني .

ضحكت وقلت له :

ـ كان يجب أن أفتشك عندما أسرتك ، ولكن لم يكن متسع لي في ذلك .. كان الانسحاب مصحوباً بك هو الغاية الأولى بالنسبة لي .. ولكن ، على أية حال ، أنا آسف .. الاحتياط واجب ، وأنا متأكد بأننا سنصل الى قواتنا سريعاً ..

وكمن يتذكر أمراً ما ، أردفت قائلاً :

ـ لقد حدثت أكثر من جريمة ضد جنودنا من قبل جنودكم الأسرى .. كنا نقدم لهم الماء والطعام والدواء والسكائر ، وهم يدفعون لنا ثمن كل ذلك قنابل يدوية يقتلون بها من يسقيهم الماء ، أو يطعمهم الطعام .. أو يشعل لهم السكائر ..

تمددت بالقرب منه ..

قال :

ـ لا تعتقد بانني قد دهشت لتصرفك هذا ، أو لما سمعته منك الآن .. لأنني أعرف ما هية أخلاق أولئك الملالي الذين يحشون أدمغة بعض جنودنا بحقدهم ضدكم .. أنا لم اندهش لذلك لأنني أعرف أكثر منك كل شيء .. ولأنني حصنت نفسي من كل كلمة يقولها أولئك الملالي ، فقد تركت كل شيء خلفي .. وأتيت .. أتيت رغماً عنهم .. وكنت أعرف ان أمامي طريق واحد لا طريقين ، وهو طريق النجاة ، وبأي ثمن كان ، حتى لو فقدت حياتي .. ربما تندهش لما أقول ..

نعم ، حتى لو فقدت حياتي ، فأنا أعتبر نفسي قد نجوت من عقـاب الله ..

وهكذا رفضت القتال ضدكم .. وأتيتكم ..

ـ أهلاً بك .. لقد نجوت حقاً ..

ربت على ظهره ، ثم مددت كفي وأخذت كفه وتصافحنا .

تصحيح اللفظ
أمام .. الأمام .. الى الأمام

كان كل شيء أمامي قد امتلأ بالليل والرمال .. وهدير العاصفة بـدأ يعزف أنغامه غير المرئية بوحشية لم أعهدها من قبل .

كل شي قد امتلأ بالرمل .. كان فمي قد أصبح قطعة من الرمـــل .. امتلأت مساماته بذرات الرمل الناعمة المالحة .. تصلب لســـاني فيـــه .. خشـــبه يابسة لا حراك فيها .. وبدأت أسناني تكز على حبيباتـــه كأنـــها تلـــوك قطعة هشة من مادة جبسية مالحة .. كنت أجاهد في التقدم الـــى أمـــام بسرعة ، فيما كانت الريح تدفع بي الى الخلف وكأنـــها تعـــاندني بشدة .. يجب أن نصل قبل أن يطلع النهار ..

لم يكن بمقدوري أن التفت الى الخلـــف . كـــان علـــيّ أن أتـــابع سيري .. هو يعرف طريقه جيداً .. وكنت أدفع العاصفة ، فكـــرت ، هـــل أدفعها ، أم هي التي تحاول دفعي الى الخلف ؟ ليس المهم مـــن كـــان يدفـــع من .. فسياطها تجلدني بلا رحمة .. تصفع وجـــهي وصـــدري .. والظـــلام أسود حالك .. عندها ارتسمت صورة أخي فـــي هـــذا الظـــلام الرملـــي .. انبثقت من بين ذرات الرمل الناعمة وكثافة ظلمـــة الليـــل .. كـــان وجهه قد أنار لي طريق سيري .. سألته وأنا أجهد الخطى للحـــاق به :

ــ هل تعتقد انكم قد وصلتم الى ما تريدون ؟

نظر إليّ وكأنه يراني لأول مرة ، كـــان مندهشاً من سؤالي . فلـــم أكن قد رأيته قبل الآن وهو ينظر إليّ .. هذه اللحظة ..

قلت له وأنا أداري بعض الحرج الذي تملكني :

ــ أنا آسف ، هل استفزك سؤالي ؟

كانت البندقية بيده .. يحملها من منتصفها بالضبط ، فكرت ، هل هي ثقيلة عليه ، أم انه لا يعرف كيف يحملها ؟

أحسست إنه قد تعب من حملها وهو يسير بجانبي .. لا بد إنها ثقيلة الى الحد الذي دعاه الى أن يحولها الى اليد الأخرى ..

قال ، دون أن يحول نظره عن وجهي :

ــ كلا .. إنه سؤال قد طرح أكثر من مرة ، ومن قبل أشخاص غيرك .

سألته بمودة ، وأنا أريد سماع الكثير حول ما ستؤول إنيه الأمور :

ــ ولكن ، لماذا نظرت إليّ هكذا ؟

أجابني ، بعد أن وضع البندقية على كتفه ، خلته وقتها إنه صياد ماهر يجوب أطراف الغابة بحثاً عن طريدة يصطادها .. قال :

ــ لقد أستطاع الامام خميني أن ينجح في إسقاط الشاه ومن وراءه الشيطان الأكبر ..

سألته باستغراب : أهذا كل شيء ؟

أجابني ، بعد أن وقف أمامي بالضبط في منتصف الرصيف الذي كنا نسير عليه :

ــ نعم .. وها أنت ترى أن كل الأمور بيد الشعب .

كان وجهه قد تهلل بملامح قرأت فيها فرحته الكبرى بنجاح الثورة عندها قلت :

ــ إذن ، الثورة هي ثورة خميني ، أليس كذلك ؟

الآن ماذا يقول ــ تساءلت مع نفسي ــ لقد استفزه ــ حتماً ــ سؤالي هذه المرة .. رغم إنني لم أقصد ذلك مطلقاً ، لكنني قرأت على وجهه علائم الدهشة ..

أصفر لون وجهه .. أصبح كورقة صفراء ساقطة من شجرة .. أصفر باهت .. هل تراه غضب مني ، أم انه يفكر بإجابة مقنعة لسؤالي ؟

نظر إليّ .. ما زال واقفاً أمامي .. فيما كانت حركة الناس على الرصيف تأخذ بعضاً من انتباهنا ..

ابتسم في وجهي ، كانت ابتسامته باهتة لا معنى لها ..

ثم قال :

ــ علي .. هل تريد أن تستفزني بأسئلتك هذه ، أم انك ..

قاطعته :

ــ كلا .. لا أقصد هذا ، صدقني .. أرجو ألا تسيء فهمي ..

سألني بلهجة حادة :

ــ إذن ، ماذا تريد أن تفهم بالضبط ؟

أجبته وأنا أحاول أن أترك هذا النقاش خوفاً على أخوتنا :

ــ لا شيء .. لا شيء ..

تركته واقفاً ، وتقدمت أمامه لأتابع سيري الى البيت ..

لحقني .. أخذ يسير الى جنبي والبندقية ما زالت على كتفه ..

ـ علـــي ..

ـ نعم .. أجبته .

ـ لا تتهرب .. لقد سألتني وعليّ أن أجيبك على سؤالك .. ولكـــن أعلم بانني أنصحك .. أنصحك لأنك أخي .. أرجو ألا تطـرح مثـل هـذه الأسئلة أمام الغرباء .. إنهم ربما يسيؤون فهمك .. ونيتك الطيبة .

سألته وأنا أزرع نظري على بلاطات الرصيـف التي أخذت تندفـع الى الخلف تحت قدميّ :

ـ هل يعني ذلك ، إن في سؤالي خطأ ما .. أو ..

قاطعني قائلاً بتوسل :

ـ كلا .. ولكن ربما يفسره الآخرون على أكثر من وجه ..

سألته بتوسل :

ـ إذن ، لنترك هذا الحديث .

ـ كلا .. سأجيبك ..

قلت له باسماً :

ـ ولكنني تنازلت عن هذا السؤال وإجابته .

ضحك .. فرأيت وجهه قد امتلأ بلون دمـه الأحمـر .. تـوردت وجنتـاه .. كانت ضحكته قد امتدت في فضاء الشارع الذي كنـا نسـير على رصيفه الأيسر .. توقف .. أنزل البندقية من على كتفـه .. أمسـك يدي ، قال :

ـ هل خفت مني ؟

أجبته :

ـ كـــلا .

قال ، وهو يتابع سيره :

ـ إذن أسـمع .. ان الشـعب الإيراني استطاع ان يقضـي علـى الشاه .. ولكن القيادة كانت للامام خميني الذي قاد جموع المسـتضعفين منذ أن كان في باريس ، ونجح في ذلك .

عندها سألته لاستشف منه بعض رد الفعل تجاه ما يدور بخاطري :

ـ ولكن كيف .. إن خميني ..

قاطعني مصححاً :

ـ أرجو أن تقول الامام الخميني .

تابعت قولي :

ـ إن الـذي أريـد قوله هو إن الامام الخميني كـان لاجئـاً فـي العراق ، ومن ثم في فرنسـا ، فكيف أستطاع أن يقود الايرانيين وهـم هنا ؟

كنت أعرف أن حديثي ـ هـذا ـ معه ، سيزيد من غضبـه ، لأن مثل هذه الأمور لم يكن مسموحـاً الحديـث فيهـا معـي .. أو فيمـا بينهما .. ولكني أعلم يقيناً ، بأنني لا أريد من أسئلتي هذه سوى الوصول الى الحقيقة التي أوشكت أن تفلت مني بعد نجاح الثورة .

أجابني دون أن يبدو عليه الغضب الذي كنت أتوقعه :

ـ علي .. إن للامام الخميني عقلا كبيرا ، وهو ثوري وسياسي من الصنف الأول ..

لم أجبه بشيء ..

تابع قوله :

ـ علي .. إنك لا تفهم الأمور جيداً ، وأنا آسف أن أقول لك هذا ..

لم أشأ أن أطيل الحديث معه .. ولكنني أستطعت الآن أن أعرف ما يجول بعقول هؤلاء الشباب ، وما ترسخ في تفكيرهم من أفكار عن ثورة الشعب الايراني ضد الشاه والذي زرعها في عقولهم خميني وجماعته المعممون .

تساءلت مع نفسي : ـ من فيهم المخطيء .. والدي أم أخي ؟ لقد كانا نقيضين ..

وكانت حيرتي كبيرة في ذلك .. لكن أبي كان صموتاً .. لا يعلن عن أفكاره .. ربما كان ذلك بسبب كبر سنه .. إلا ان هناك أسئلة ما زالت عالقة في تفكيري ، تنبش فيه ، لكنني سأتركها الى وقت آخر .. المهم الا أضيّع أخي مني .. يجب أن أراقبه جيداً ..

مددت بصري الى صورته المنطبعة في ظلام الليل ، فلم أر شيئاً .. كان الليل وصوت الريح هو كل ما ملأ بصري وسمعي .. وقفت .. كانت الريح تدفعني دفعاً الى الخلف .. التفت الى الخلف ، كان الظلام هو الذي ملأ بصري .. لا أثر للعراقي .. أين هو ؟ هل أضاعني أم أنا الذي أضعته ؟.

أجنحة الليل السود

مد الليل أجنحته السود ، كنسر جاثم على فريسته ، هكـذا وجـدت نفسي أقول ، وأنا أتذكر هذا التعبير الأدبي الذي كثيراً ما استخدمه جـاداً الجندي الأول كاظم ، عندما يحل الظلام علينا ونحن ضمن أفراد الوحـدة العسكرية متوزعين بين الملاجيء والخنادق في السواتر الأمامية .

كان الجندي الأول كاظم شاعر فصيلنا الذي لا يشق له غبار ، كما كان ينعته زاهد ، و ((شويعر)) ، كما يقول هو عن نفسه .. وكنت أنـا وإياه الجنديين الوحيدين في الفصيل اللذين تخرجا من كليـة واحـدة ، حيث ضمتنا مقاعد ((الآداب)) أربع سنوات سوية .. فيما كان الجنـود الآخرون في الفصيل لم ينهوا دراستهم الجامعية ، عدا العريف محمـود والجندي الأول زاهد اللذان تخرجا من معهد التكنولوجيا .

قلت لأسيري وأنا ما زلت أتذكر كلمات ((كاظـم)) وهـو يصـف الليل بالنسر وأجنحته السود :

ـ هيا أسرع ، يجب أن نستغل الظلام .

كان يسير أمامي ، وقد تقوس ظهره الى الأمام قليلاً .. كـان يجـر جسده بتعب باد أحسسته من خلال سحبه لقدميه .

سرت خلفه وبندقيتي قد علقتها من حمالتها الجلدية علـى كتفـي ، وكنت أبعد عني كـل التعب الذي بدأت أحس به يـنزرع بيـن مفـاصل جسمي ، وفي عضلاته .. كان كل شيء في جسمي قـد اصبـح قطعـة واحدة من رمل .. رمل ناعم وجد طريقه الى كل مسامة مـن مسـامات جسمي ..

ـ ها .. الى ماذا وصلتم ؟

سألتهم وأنا أدخل باب الملجأ .

أجابني زاهد وهو يصب الشاي في قدح كبير كان أمام كاظم .

ـ ما زال الوحي غائباً .

قلت له وأنا أضع ابتسامة ساخرة على شفتي :

ـ أحقاً ؟!

عندها رفع كاظم وجهه من الورقة البيضاء التي انفرشت في حضنه .. نظر إليّ ، وقال بوجه مكفهر :

ـ نعم .. إنها الحقيقة .

ثم ، لف الورقة بامتعاض ، كورها ، ثم قذف بها نحو زاهد الذي ارتسمت على ملامحه بعض علامات الاندهاش والانزعاج .

ـ هل أنا شاعر بالأجرة ؟!

صاح به وهو ينهض من مكانه فيما راحت قدمه بصورة لا إرادية تضرب قدح الشاي الذي ما زال بخاره يتصاعد .. اجبته وأنا أدفع الورقة من على الأرض :

ـ لا أبو جواد ، أنت شاعر ((تكسي)) ؟

عندها انفجرت ضحكة من بين شفتي زاهد الذي نهض راكضاً نحو باب الملجأ ، حيث فر هارباً وضحكته ما زالت ترن بين أكياس الرمل المنضودة على جدران الملجأ ، فيما كان كاظم يهرول خلفه محاولاً الامساك به ..

تساءلت : أين هو ؟!

كيف لم انتبه إليه ؟ أين ذهب .. هل هرب مني ؟ ولكن كيف يستطيع الهروب في هذا الظلام الرملي ؟

صرخت بكل قوة صوتي وأنا أنادي عليه باسمه ، فامتلأ فمي بالرمل .. حاولت مرة ثانية ، كنت أعرف ان لا جدوى من صراخي ، فصوت الرياح ما زال عالياً بوحشية .

تركت جسدي ينهار على الأرض ، فيما كان الظلام يطوقني من كل جانب .. وكان كل الذي أحسست به في هذه اللحظة هو إنني قد أذنبت .

كان نظري وهو يمسح ما حولي يصطدم بسواد الليل وظلامه الرملي الدامس .. كان يجب عليّ ـ قلت مع نفسي ـ الا أدعه يفلت من نظري على الأقل .

بدأت ألوم نفسي دون ان أفقد الثقة بإنني سأجده رغم ظلام الليل ، والأصوات الوحشية المتنوعة التي تعزفها الريح وهي تحرك رمال هذه الأرض من مكان الى آخر جاعلة الفضاء الذي من حولي قطعة من رمل ناعم .

كانت الرؤية معدومة .. لا ضوء ، لا قمر ، لا نجوم .. ربما قد تاه في لجة هذه الرمال ، تساءلت مع نفسي ، أو إنه وجدها فرصة سانحة له فعاد الى قواته ، ربما ندم على فعلته تلك ؟

كان يجب عليّ ألا أدعه يسير أمامي بمسافة كبيرة ، كان يجب ألا أزوغ ببصري عنه .. حتى لو امتلأت عيناي بالرمال .

هل يبحث عني الآن ؟ تساءلت .

ـ مـــاذا ؟!

ارتسم على ملامح وجهي الرمليـــة اندهـــاش مضحـــك ، عندهـــا ضحكت في سري من هذه الفكرة السخيفة .. أسير يبحث عن آســـره .. كيف يحدث هذا .. كيف ؟!

عدلـــت مـــن جلستي .. أعطيت ظهري الى حيث تســـفوه الريـــح برملها الناعم .. وجـــدت فـــي ذلك وضعاً مريحـــاً لجســـدي المنـــهك ، فظهري الى مواقع قواتنا كمـــا خمنـــت مع نفسي ، وعيني الى الجهـــة التي أتينا منها .

ـ سأجده حتماً ..

خاطبت نفسي ، ومن بين أصوات الريح الرملية ، انتبهت الـــى أن أسيري كان يسير أمامي متجهاً حيث اتجاه قواتنـــا .. أي إننـــي أجلـــس وظهري الى الجهة التي يسير نحوها أسيري .. هل وقعت فـــي الفـــخ ؟ وأي الجهات أسلم من الأخرى ؟..

نهضت ، وأخذت أحملق في الفضاء الليلي الرملـــي فاتحـــاً عينـــيَ باتساعهما علني أقع على شبحه بين هذا الظلام الحالك . كيـــف ســـمحت لنفسي أن أضيّع أثره .

ـ ستنتهي العاصفة ، وسأراه برغم هذا الظلام .. يجـــب أن أجـــده حتماً .

ـ الى أين سيذهب ؟ حتماً إنه لا يبعد عني كثيراً .

لم تكـــن العاصفة كما كانت قبل لحظات .. لقد اشتدت أكـــثر ممـــا كانت عليه .. وأصبح الهواء الذي أتنفسه في حلكة هـــذا الليـــل مشـــبع بأطنان من الرمل الناعم الذي راح يصفع وجهي وجسمي كلـــه ببعـــض الأشياء الصلبـــة وأوراق متطايرة ، وعلب صغيرة .. لم أرها أو أحـــس بها إلا عندما تصفعني بقوة .. كانت الريح قوية جـــداً .. فبـــدأ جســـمي يترنح وأنا أجاهد فـــي ســـبيل إبقائـــه منتصبـــاً .. أحسســـت بضربـــات متوالية من فوهة البندقيـــة المعدنية على فخذي الأيمن .. تذكرتها .. لـــم أكن منتبهاً الى وجودها وهـــي معلقة على كتفي .. لقد نســـيتها ، وأنـــا أجول بفكري وبصري بين ظلام هذا الليل والرمل المتطـــاير ، وأســـيري الذي ضيعته .

ربما امتلأت الآن بالرمل ، نزعتها من على كتفي .. صالبتها أمـــام جســـمي المترنـــح ممسكاً إياها بكفي .. أدخلت إصبعي في فوهتـــها .. كان الرمل قد وجد طريقه إليها .. كانت متسخة .. أخرجت منديلي مـــن جيب بنطالي وأخـــذت أمسح بدنها ، ثم أدخلت طرفـــه فـــي فوهتـــها .. حركته الى اليميـــن والـــى اليسار ثم سحبته ، فأفلت من أصـــابع يـــدي وطار الى جهة ما .. عندها انتبهت الى إنني قمت بعمل لا فائدة منـــه .. فما زالت الريح تسفح رمـــل هـــذه الأرض وتملأ البندقية ، وكل فتحـــة فيها منه .. فما جـــدوى ما فعلتـــه ؟ عندها أعدت البندقية الى مكانـــها على متني .

اقرأ .. اقرأ .. يا أحمد

ـ آه ، لقد قلقت عليك كثيراً ..

بادرته بالحديث ، وأنـا ((ابحلق)) جاهداً في الشـبح الواقـف أمامي ، وكأنني أريد أن أتأكد من إنه هو الأسير الايرانـي ((علـي)) وليس غيره ، رغم إنني واثق مـن إنه هو نفسه . جاءني صوتـه مـن بين ذرات الرمل وسواد الليل ، معتذراً :

ـ إنها العاصفة ، والليل ، لم أكن منتبهاً جداً ، سـرت وكـأنني أسير لوحدي في شوارع طهران .

سألته باشفاق دون أن أدعه يفكر ولو للحظة بارتبـاكي وقلقـي الزائد :

ـ هـل عطشـت ؟

كان العطـش قد يبَس لساني ، وامتلأ فمي بالرمل فأحالـه الـى قطعة من خشب ، فيما كانت البندقية بحمالتها النسيجية علـى كتفـي ، ويدي تلامس زنادها المعدني ..

قـال :

ـ لقد تيبس فمي .

كانت الزمزمية المعدنية ممتلئة لنصفها ، وهـذا يكفـي فيمـا إذا استطعنا الوصول الى مواضع قواتنا قبل الفجر .

أخبرته بذلك ، بعد أن تمضمض بقليل من مائها .. وأخذ جرعـة منه ملأ فمه بها ، ثم ابتلعها .

نظرت حولي . كان كل شيء قد أسود .. عدا ما كانت ملابسه ترسم لبصري حدوداً لشبح واقف أمامي .. والهواء ما زال يتحرك هائجاً ، رغم الهدوء النسبي للعاصفة .

كانت العاصفة قد هدأت قبل قليل .. ولكنني لم أطمئن لمثل هذا الهدوء .. لقد عودتنا على الا نثق بها . إنها لم تكن صادقة معنا ، فهي بين أن تكون شديدة حد الخوف منها ، وبين أن تكون هادئة حد الشاعرية والأمان .. ولكن ، عندما نبدأ المسير يتعالى صراخها ، وكأنها تعاندنا .. ويبدأ هديرها المرعب يملأ آذاننا بصفيره الموحش المزعج ، ويدفع بعيوننا الى أن تبدأ بفتح مجاريها ليسيل الدمع حتى يمتزج مع الرمل .

منذ الصباح ونحن نطوف في هذه الأرض الشائعة بين رملها الناعم ، وصوت ريحها العاتي .. لم أجد ما يدلني حقيقة على إتجاه تواجد مواضع قواتنا .. حتى جماعتي لم أعثر عليهم .. حتماً إنهم قد انسحبوا .. وحسبوني في عداد المفقودين .. هذا ما أكده العريف محمود أكثر من مرة ..

قال :

ــ يجب إيصال كل المعلومات التي سنحصل عليها خلال مهمتنا هذه ، عن العدو الى قواتنا .. لا يهم من سيوصلها .. المهم أن تصل .

هل وصلوا .. هل بحثوا عني .. هل وصلت المعلومات .. هل .. أسئلة كثيرة راحت تتصارع في فكري الذي شوشته هذه الأصوات التي

امتلأ بها الفضاء من جديد .. لكنني تركت الإجابة عنها .. فالكنز الثمين معي ، ها هو بين يدي ، وعليّ إيصاله سالماً الى قواتنا .

قلت للعريف محمود ، بعد أن سلمته الرسالة التي بعثت بها زوجته معي بعد أن عدت من إجازتي الدورية :

ــ إنها امرأة رائعة يا محمود .

لم يقل شيئاً .. نظر إليّ بصمت ، وأخذ الرسالة ، ثم خرج من الملجأ ..

كان العريف محمود واحداً من الرجال الأبطال الذين حظوا بتكريم آمر التشكيل .. فمنذ الأيام الأولى للحرب وهو يقاتل .. متنقلاً مع وحدته من قاطع الى آخر .

قال لي وهو يستقبلني عند التحاقي بوحدتي :

ــ لقد شاهدت حدودنا الدولية من الشمال الى الجنوب .. هذه هي العسكرية .. أنت اليوم هنا ، وغداً في مكان آخر .. حسب ما يتطلب الموقف العسكري .

وكان ، عندما يعود من اجازاته الدورية ، يفضح وجهه الحزن الذي يكابده ، حتى ضحكه معنا في أوقات الهزل كان مشوباً بذلك الحزن .. وكنت أقول أن سبب ذلك خدمته الطويلة في السواتر الأمامية .. وهو لم يخبرنا بشيء أبداً .. لكنه عندما تسلم الرسالة وخرج ، عاد إليّ بعد دقائق والفرح يحيط به ، مرسوم على ملامح وجهه وبين شفتيه ، وعلى رموش عينيه .. وكانت الرسالة منشورة بين يديه .. سلمني إياها والبسمة لا تفارق فمه .. قال لي :

ـ اقرأ .. اقرأ يا أحمد ..

أخذت الرسالة ، كانت الدهشة قد وجدت طريقها إليّ .. أما هو فقد خرج مسرعاً من الملجأ ، ثم عاد ، وقف في فتحة باب الملجأ وصاح بي :

ـ بسرعة ، ماذا تطلب .. بارد .. شربت .. كيك .. ها ؟

لم أجبه .. إذ ما زالت الدهشة تحل في كياني كله ، لم أره من قبل هكذا .. وعندما حاولت أن أكلمه وجدته يترك باب الملجأ مسرعاً والفرح يتطاير منه ..

كانت الرسالة التي بين يدي ، قد كتبت على ورق خاص مزين بالازهار الملونة .. إنها من زوجته .. بدأت بقراءتها .. عندها عرفت سبب حزنه السابق ، وهذا الفرح الزائد الآن .. إنها حامل .. عندها قلت : مبروك لك ولي العهد هذا يا محمود .. هكذا تسميه الرسالة (ولي العهد) .. إنك تستأهل كل الخير .. ها أنا عرفت كل شيء يا محمود ..

ـ هل أحببت في حياتك ؟

فاجأني سؤال الأسير الايراني .. وأخرجني من عالم محمود وابنه القادم (ولي العهد) الى دنياها هذه ..

كان يسير أمامي .. وكنا نحن الاثنان ننقل خطانا بحذر شديد كي لا يميل سيرنا يميناً أو شمالاً ..

نظرت الى الفضاء الذي يحيط بنا .. لم أر سوى الليل ((بأجنحته السود)) لكنها أجنحة قد تمرغت برمل الأرض .. رمل ناعم وأصوات وحشية تعزف ألحاناً لم أسمعها من قبل .

وقف .. كان التعب قد هدنا ، حتى العرق قد توقف عن (النز) .. وأنسدت كل مسامات جسدينا بالرمل ، وأصبحت أدمة جلدنا يابسة خشنة كجلد حيوان أجرب .

ـ أرجو ألا أكون قد أزعجتك ؟

وقبل أن أقول شيئاً ، فكرت ، هل أجيبه أم أدع الحديث جانباً ونتابع سيرنا ؟ فما زلت لا أعرف أن كنا نسير بالاتجاه الصحيح ، أم لا ؟ وقد انتصف الليل ، والعاصفة برغم هدوئها ما زالت تملأ الفضاء الأسود بغبار لم نره في حلكة الظلام لكنه كان يملأ أفواهنا وعيوننا ويدخل تحت ملابسنا ..

قصــة حــب ..

آه .. اين أنت يا كاظم لتكتب لنا قصيدة عن حب هذا الأسير لحبيبته بنت حسن اصفهاني ليتغنى بها في ساعات وحشته وليتبدد كل الحزن الذي كان قد رافقه أو سيرافقه وهو أسير بعيداً عن أهله ووطنه .. وحبيبته ..

أعرف إنك ـ يا كاظم ـ تحب سماع قصص الحب .. ويقيناً أن قصة حب (ايرانية) مثل هذه القصة ستفتح طريق الالهام وستكتب أعذب القصائد .. ستكتب فيها شعرا كثيرا ..

ـ هل تحدث نفسك . سألني .

ـ ها .. كلا .. بل كنت أحدث كاظم .

مندهشاً قال :

ـ وأين كاظم ؟

ضحكت بفم مليء بالرمل ، وضحك هو الآخر .. فيما كانت العاصفة برمالها الناعمة تأخذ بأطراف حديثنا لتمزقه .. وبالكاد كانت آذاننا تلم تلك الأطراف .. تجمعها من هنا وهناك لنعي معانيها المدافة بالرمل وصرخات الريح .

بادرني قائلاً :

ـ أرجو أن تستمر .. وليس المهم ان تحدث أحداً ..

ـ هذا صحيح . قلت له ، ثم سألته : ـ لماذا لا تتحدث أنت .. فما دامت العاصفة لم تهدأ بعد ، وما زلنا وحيدين على هذه الأرض

الجرداء ، وما دمت تريد أن تتحدث .. قل أي شيء عن حبيبتك .. والدك .. الاستاذ اصفهاني .. أخيك الذي قتل بيد أصحابه حرس الثورة .. المهم أن تقول شيء ما .

نظر حوله .. رفع بصره الى الأعلى .. حرك رأسه يميناً وشمالاً .. ثم قال :

ــ أعتقد ان الشمس قد غابت .

قلت :

ــ لولا هذه العاصفة اللعينة لكنا الآن قد وصلنا الى مكان قطعاتنا .

ندت منه حسرة حسبتها قد قلعت معها ما في جسده من حياة .

سألته :

ــ هل أنت نادم على ما فعلته ؟

ــ كلا .. لقد هربت أنا من تلقاء نفسي .. لم يجبرني أحد منكم ، ولكنهم هم الذين أجبروني على ذلك .

سألته :

ــ من هم ؟

قال وكأنه لا يريد أن ينطق باسمهم .

ــ الأوغاد ..

سألته ، محاولاً أن اختبر صحة أقواله :

ــ إذا كنت تريد العودة الى من حيث أتيت ، فإنني سوف أتركك تعود .. صدقني .

أجابني قائلاً : ــ

ــ وهل ارغمتني أنت على أن أأتي إليكم لكي تعطيني الحرية في العودة ؟

قلت له :

ــ مهما تكن الحالة التي وصلنا إليها أنت وأنا ، فإنك تظل أسيري .. ولكن ثق إننا نعامل الأسرى وكأنهم في ديارهم .. أقصد في بيتهم ، لأن دياركم الآن ، أقصد إيران قد أصبحت الجحيم بعينه بالنسبة لكم ، أليس كذلك ؟

كان الظلام الرملي ما زال مخيماً .. فيما هدأت العاصفة والريح أصبحت أكثر هدوءاً ..

قال :

ــ هذا صحيح . ولو لم أكن هنا الآن ، لكنت واحداً من أثنين ، أما أن أكون قتيلاً بإحدى رصاصات قواتكم ، أو في هجوم جوي ، أو مدفعي .. أو أن أكون مشنوقاً في بلدي .. والنتيجة واحدة ..

سألته :

ــ ألهذا فضلت الأسر ؟

قال :

ــ نعم ..

سـألته :

ـ بالرغم مما كانوا يقولونه لكم عنا ؟

أجـاب :

ـ نعم .. لقد قالوا كلاماً كثيراً .. جعلوا منكم قتلة ، آكلي لحـوم البشر .. كفرة .. بلا أخلاق .. تقتلون الأسرى .. و .. و ..

عندها ربت على كتفه ، وقلت :

ـ أهلاً بك .. ستكون بمأمن من الاخطار في العراق .. وبالكـاد ، جاءني صوته الذي تلاشى في الفضاء :

ـ شـكراً لـك .

كانت العاصفة ، بعد هدوء قصير ، قد بدأت مرة أخرى ، لم تكـن قد انتهـت ، لكنهـا بدأت تزداد شراسة .. وبدأت آذاننا تسمع صوتـها أكثر مما تسـمع كلمـاتنـا . فيما أصبح لون الفضاء المـنزرعين فيـه أكثر ظلمة ..

سـألني :

ـ هل تعتقد ان العاصفة ستهدأ مرة أخرى ، قبل انبلاج الفجر ؟

أجبـته :

ـ كل شيء بيد الله .. المهم أن نكون بمأمن من أيـة طلقـة أو قنبلة مدفع .. علينا أن نصل سالمين ..

لم يفه بشيء ، عندها أكدت له :

ـ حتماً سنصل .

ـ لكن المسافة قد طالت .. هل نحن نسير بالاتجاه الصحيح ؟

نفس السؤال قد طرحته على نفسي أكثر من مرة ، أجبته :

ـ ليست المسافة هي التي طالت ، لكن العاصفة هي التي أخرتنـا من الوصول .. ألا ترى كيف نجاهد في سبيل تحريك ساقينا ..؟

هكذا حاولت أن أبدد أي تفكير قد راوده حول ضيـاعي للطريـق الذي يوصلنا الى قواتنا .. إلا أنني بقيت في شك من أمري ..

عندما تمطر السماء طريقاً للوصول

كانت العاصفة قد اشتدت مرة أخرى .. وبدا كل شيء حولنا أسود .. فيما الهواء الذي أخذت حركته بالاشتداد محمل بملايين الذرات من الرمل الناعم .

كنت أجلس بالقرب منه .. وقد انتهى للتو من بلع آخر قطرة قد ارتشفها من الزمزمية ..

كانت الزمزمية قد فرغت مما كان فيها من ماء .. إنها آخر جرعة ماء قد أنزلتها في جوفي .. وكنت أود الاحتفاظ بها لأطول مدة في فمي اليابس ، لإنني قد أحسست إن هذه القطرات القليلة التي أحتسيها من الزمزمية هي بداية النهاية ، فيما لو ظلت هذه العاصفة الرملية اللعينة ترمي بوجوهنا أكوام الرمل ..

كان الجو ملينا بتلك الذرات الناعمة ، فيما كان مدى الرؤية معدوماً .. إذ لا نكاد نبصر بعضنا إلا بالكاد .. وكنت أنا أسأل نفسي : ــ لماذا لم يخلقنا الله كما خلق الجمال ، حيث يمكننا الاحتفاظ بالماء لنستفيد منه وقت الحاجة ؟

ارتسمت على شفتي ابتسامة رملية لم استطع حبسها بين أسناني ، مما اضطرني دون وعي مني الى أن أسكب من بين شفتي بعض قطرات الماء التي كنت أحتفظ بها تحت لساني .

انتبهت الى أسيري .. كان رأسه نحو الأسفل ، ربما كان يفكر بفاطمة .. أو بوالدته التي ظلت وحيدة في بيتهم .. أم إنه كان يفكر

بوالده الـذي لا يعرف عنه شيئاً .. أم بأخيه الذي قتلتـه الثـورة التـي باركها .

لم أشأ أن انتزعه مما كان يعيش فيه من ذكريـات ، قـررت أن أتركه لاحلامه .. حتماً إنها أحلام مبهجة ومهما كانت قتامتهـا .. ومـا فيها من مأساة وقهر وظلم .. ليتذكر ــ قلت مع نفسي وكأنـي أحـدث آخراً ــ ما يشاء ، ستكون مثل هذه الذكريات رفيقاً له ، ستلازمه أينمـا ذهب وأينما حل ، منذ الساعة التي وجد فيها نفسه معي أسيراً .. وحتمـاً ستسعده هذه الأحلام والذكريات في أيامه القادمة ..

كان الظلام ينشر من حولنا رداءه الحالك السواد .. وكانت الريـح تجلد جوهنا بسياطها المحملة بذرات الرمال الناعمة .. وما تحملـه مـن مخلفات المعارك السابقة من أشياء متروكة .

وقتها ، تمنيت أن تمطر السماء .. أن تغسل بقطرات مطرها هـذا الجو المليء بالغبار وذرات الرمال ..

انتبهت الى إنني أبحث في ذاكرتي عن إجابة لسؤال طرحته مـع نفسي دون وعي مني ، عن أيهما أنفع لنا ، أن تمطـر السـماء لـتزيل الغبار ، أم لنرتوي من ماء مطرها ؟

كان الجواب الذي اهتديت إليه مع نفسي قد دفعني الى أن أعـرف ما يفكر به أسيري ، لو طرح عليه مثل هذا السؤال :

ــ ها .. ماذا تقول ؟

ربما فاجأه السؤال .. وقد أخرجه من دوامة أفكـاره .. أو ربمـا من خلو ذكرياته ، أو مرها ..

ــ أقول ، أيهما أنفع لنا حين تمطر السماء ، أن تزيل الغبار مـن حولنا ، أم أن تروي عطشنا ؟

مد بصره الى أمام ، وكأنه يبحث عن شيء ما في الظلام الرملـي الدامس .. وظل صامتاً ..

كان السؤال قد أوقعه في حيرة .. هكذا أحسست بما يجـول فـي ذهنه .. أو هكـذا خمنـت ، بالرغم من إنني لم أستطع رؤيـة ملامـح وجهه في هذا الظلام ، هل اصفر ، أم إنه أصبح أحمر ــ أم ظل كما هـو لونه تحـت شعيرات لحيتـه الرملية .. هـل ابتسـم ، أم ان صفحـة وجهه قد تعكرت .. لكنني رأيت شبح رأسه يستدير نحوي :

ــ هل تريدني أن أجيبك عن هذا السؤال ؟

كانت الريح تفعل فعلها بين حروف الكلمات :

ــ كلا .. لا داعي للإجابة .

ثـم أسرعت لأضع كفي على فمه ، وبصوت خـافت حـاولت أن يصل إليه دون أن تؤثر فيه الريح ، قلت : ــ لا تقل شيئاً .

كنت قد فاجأته ، كما فوجئت أنا . فأحسست بجسده يهتز .. وقـد انتابته رعشة خوف .. اقتربت منه كثيراً ، وهمست في أذنه :

ــ انبطح بسرعة .

وبحركة واحدة ، امتدت أجسادنا على رمل الأرض ..

كان جسدي مرميا بالقرب من جسده ، عندها رفعت يدي لتؤشر له عن الجهة التي أمامنا .. وهمست قائلاً :

ــ رأيت أكثر من شبح يتحرك بعيداً عنا .. يجب أن نتأكد من هويتهم أولاً .

قال هامساً :

ــ هل هم جماعتك ؟

أجبته :

ــ ربما .. لكن ، يجب أن نتأكد من ذلك ، وأن نراقبهم ونحن في هذا المكان .. سنقلل الحركة والكلام ..

كانت الأشباح التي تراءت لنا من بعيد وهي تتحرك في هذا الظلام الرملي بحذر شديد ، تجوس أقدامها رمل الأرض .. وتشق ظلمة الفضاء .. تدفعها من الخلف ريح ليست هادئة كانت تقترب منا ببطء ..

ــ هل هم عراقيون ؟

تساءلت مع نفسي .. وأجبت وكأني اهدىء نفسي مما انتابني :

ــ إن شاء الله .

لا أعرف إن كان هذا الذي امتلك نفسي كان مرده الخوف أن لا يكونوا عراقيين ، أم كان بسبب الفرح الذي تراقص في كياني ، لأننا وصلنا سالمين ؟

سمعته يهمس لي :

ــ هل تناديهم ؟

قلت له :

ــ ليس الآن .. يجب أن أتأكد من هويتهم ..

ــ كيف ؟

أجبته بثقة :

ــ سأعرفهم ..

إلا أنني ومع نفسي ، أكدت بانني لا أقدر أن أميز هويتهم في هذا الظلام الأسود ، وفي الوقت نفسه اتخذت قراري ، وهمست له :

ــ سأتركهم يجتازوننا .. عندها سأعرف من يكونوا .

همس بأذني :

ــ ماذا قلت ؟

أجبت :

ــ عليك أن تسكت الآن ..

أخذت الأشباح تتوضح بعض معالمها .. إنهم جنود ثلاثة .. بدت حركتهم البطيئة تميل باتجاهنا .. تحركوا بموازاتنا .. بعيداً عن خط انبطاحنا .. ها هم يجتازوننا ببضع خطوات ..

صرخ أحدهم مشيراً إلينا :

ـ انظروا ..

تجمدت الأشباح في الظلام .. فيما رنت كلمته تلك في أذنيَ كنغمة موسيقى عزف على وتر واحد .. إذن هو نفسه ..

صحت فرحاً :

ـ عريف محمود .

ذي قار ـ تموز ١٩٨٣

تموز ٢٠٠٠

كلمة لا بد منها

هذه السطور التي تقرأها عزيزي القارىء في هـــذه اللحظـــة .. هي فقط السطور التي لي الحق في أن اذيلها بإسمي وتوقيعـــي .. إذ أن ما قرأته قبل ذلك .. ليس لي الحق في أن أنسبه لقلمي .. ذلـــك لأن مـــا قمت به تجاهها هو التنظيـــم والترتيب وتصحيح بعض الارتبـــاك الـــذي أصاب بعض عباراتها .

وكذلك ، فإن جميع عناوين الفصول هي من وضعي أنا ، ســـوى ثلاثة فصول حملت عناوينها كلمة (صورة) فإنها كانت موجـــودة فـــي الأصل ..

ومن الطريف ، إن كاتبـــي هـــذه الفصـــول (الصـــور) وكذلـــك الفصول الأخرى ، قد أطلقا مصطلـــح (الصورة) سوية دون أن يعـــرف أحدهم بما كتبه الآخر .. لهذا وجدت من المناسب أن أضع هذه الصـــور في ترتيب متسلسل .

الكاتبان ، أحدهما جنـــدي عراقي هو (أحمد) والآخـــر جنـــدي إيراني هو (علي) ، الثاني أسير ، والأول آسره ..

عندما وصل الآسر بأسيره الـــى وحدتـــه ، ســـلمه الـــى ضـــابط استخبارات الوحدة ، كما هي السياقات العسكرية المعمول بـــها .. وقـــد عومل هذا الأسير معاملة إنسانية عالية .. وقبـــل أن يطلـــب أي شـــيء كالمـــاء ، او الاكـــل ، أو الســـكائر طلب بلغة عربيـــة فصيحـــة قلمـــاً وأوراقـــاً .. وعندمـــا ســـأله ضابط الاستخبارات عن الســـبب ، أجابـــه قائلاً : ــ أرجو أن تمنحني ساعة واحدة لأكتب ما يجول بذاكرتي ..

وكان له ما أراد ..

وعندما سمع الجندي (أحمد) بذلك ، راح هو الآخر يكتب ذكرياته عن الأحداث .. وبعد أن انتهيا الأسير والآسر كتابتهما سلماً ما كتبا الى ضابط الاستخبارات الذي أرسل بطلبي ..

قال لي : ــ أنت أجدر بهذه الأوراق .. خذها وأقرأها ..

فكانت هذه الفصول .. الرواية ..

داود سلمان الشويلي

الفهرست

الموضوع	الصفحة
إهـــداء	٥
خلف العليقة .. انتظار وبكاء	٧
الحفل الذي سقطت فيه الحلوى من السماء	١٥
النعامة التي دست أنفها في الرمل	٢٩
شـركة التصديـر	٣٧
حوار تحت وابل من ذرات الرمل	٤٧
طـلاسم تذروها الرياح	٥٥
صـورة البقـرة	٦١
صـورة النـوم	٧١
صـورة القلـق	٨٣
حروف عبر ــ آنية	٩١
البحر ــ العدو	٩٧
تصحيح اللفظ : امام .. الامام .. الى الامام	١٠٧
أجنحة الليل السود	١١٥
اقرأ .. اقرأ .. يا أحمد	١٢٣
قصـــة حـب	١٣١
عندما تمطر السماء طريقاً للوصول	١٣٩
كلمة لا بد منها .	١٤٧

٨١٣ر٩٢
ش ٩٩٨ الشويلي ، داود سلمان
طريق الشمس : رواية / داود سلمان الشويلي
بغداد: دار الشؤون الثقافية، ٢٠٠١
ص؛ ٢٣سم.
١ــ القصص العربية ــ العراق أ ــ العنوان
م.و
٢٤٦ / ٢٠٠١

المكتبة الوطنية (الفهرسة أثناء النشر)

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٤٦) لسنة ٢٠٠١

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة - شركة عامة